اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

تصدر عن دار المعارف

دكتور جمال حمدان

نحن.. وأبعادنا الأربعة



إهـــــــداء٢٠٠٧

اسرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيات

جمهورية مصر العربية

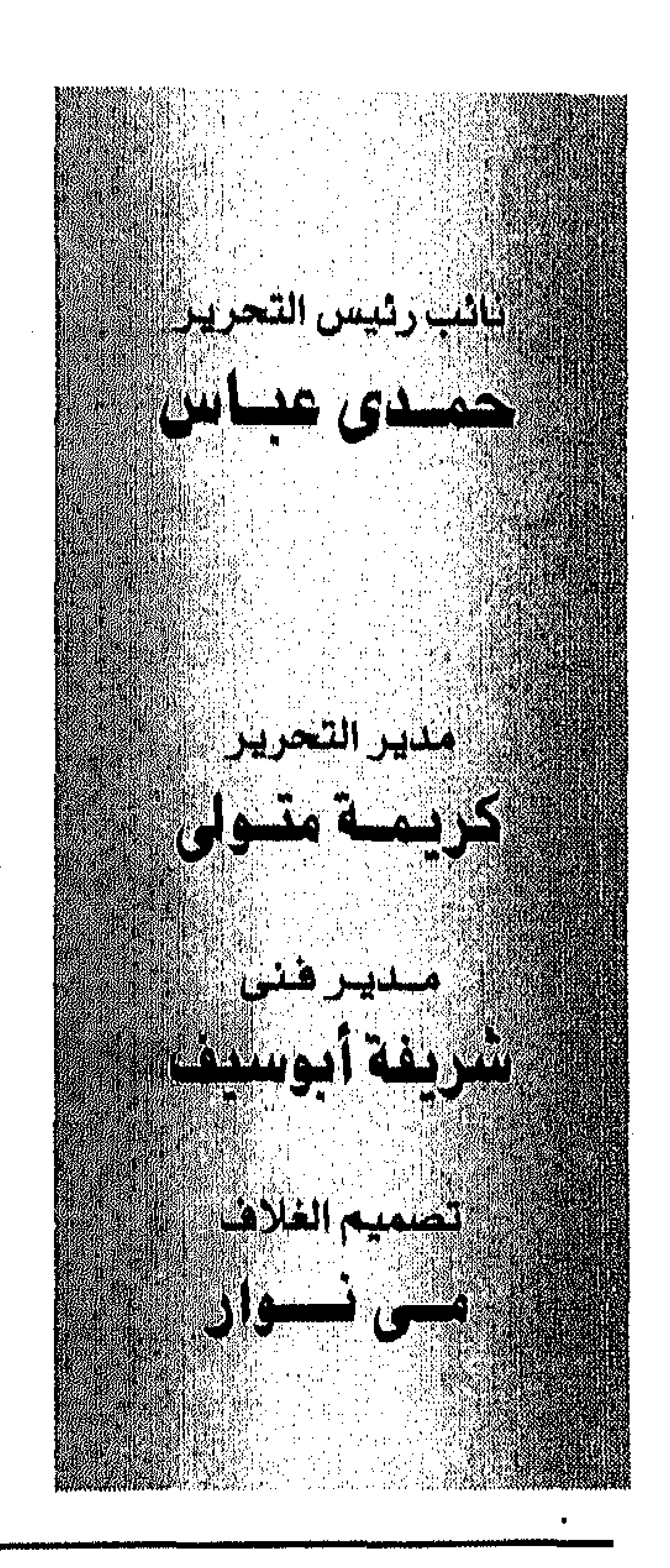


سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٨٨]

رئيس التحرير

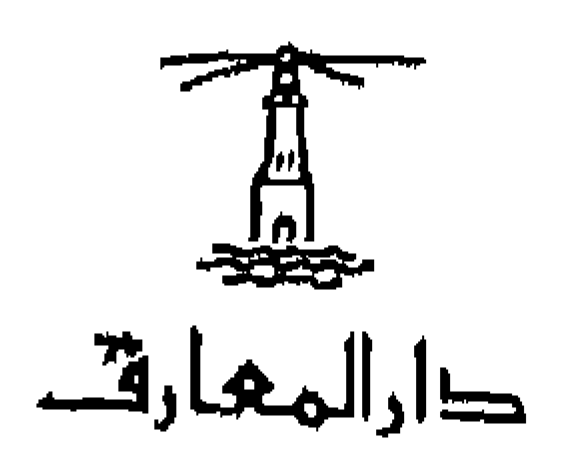
رجب البنا



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

دكتور جمال حمدان

نحن ...
وأبعادنا الأربعة



دار المعارف

إقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح الى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها .

طه حسين

العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

مقدمـــة

مقدمة فى تعدد الأبعاد[1]

تعدد الأبعـاد والجوانب فى كيان مصر وتوجهها نتيجة منطقية. منتظرة ومتوقعـة، للموقـع البـؤرى فـى قلب مثلث القارات. فمصر حلقة وصل بين العالم المتوسطى وبين حـوض النيـل برمتـه، بمثل ما إن السودان حلقة وصل بين العالم العربى وإفريقيـا المداريـة. أو هى على الجملة حلقة وصـل بـين إفريقيا وأوربا. شأنها فـى هـذا شأن جزيـرة المغـرب علـى الجانب المنـاظر مـن القـارات. وهـذا مـن الناحية الجغرافيـة والإقليميـة العامـة.

ومن الناحية البشرية والاجتماعية البحتة فلقد كـانت حضـارة مصر العربية. التـى تـزرى بحضـارة أوربـا الوسيطة شمـالا، تنتكس أثناء مجاعات العصور الوسطى الرهيبة إلى ما يذكر بحضارة العـالم الزنجى جنوبا بعجزه وتواكله ونمنميتـه ورقـه. أى إنـها كـانت تتارجح إلى حد ما بين حضـارة رأسـها المتوسـطى وحضارة جذورهـا

---

(١) انظـر حمـدان، شـخصية مصـر، الجـزء الرابـع، الصفحـات ٣٩٩ – ٤٧٩، القاهرة ١٩٨٢.

النيلوتية أو بين انتماءاتها الأوربية وانتماءاتها الأفريقية. على أنها أكثر من ذلك كانت حلقة الوصل بين الشرق والغرب وبين المشرق والمغرب. والممر الطبيعى الأول بين آسيا وإفريقيا.

معنى هذا أن مصر لها بعدان أساسيان هما البعد الأفريقى والبعد الأسيوى. وكل منهما ساهم فى تكوين شخصيتها وتحديد لونها بنسبة معينة. فالبعد الأفريقى أمدنا بالحياة - بالماء والسكان، ولكن البعد الآسيوى أمدنا بالحضارة - بالثقافة والدين منذ العرب. وحتى فى العصر الحديث وفى الجانب السياسى تمثل البعدان فى حركات الوحدة السياسية التى دخلتها مصر: مع السودان أولا ثم سوريا بعد ذلك.

هكذا تتحدد لنا فى المحصلة العامة أبعاد أربعة فى توجيه مصر: الأسيوى والأفريقى على مستوى القارات، والنيلى والمتوسطى على المستوى الاقليمى. غير أنه من الواضح أن هذه الأبعاد يتداخل بعضها فى بعض غالبا كما يفعل النيلى والأفريقى. هذا فضلا عن ان الكل يتداخل مع الإطار العربى الكبير. بيد أن الإطار العربى ليس مجرد بُعد توجيهى أو إشعاعى وإنما هو خامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته. هو الجسم حيث الأبعاد هى الأطراف. هو الوجه وهى الوجهة. هو الهوية وهى (هوائيات) الإرسال والاستقبال. بوضوح أكثر: العروبة وجود، ولكن الأبعاد توجهه، إن تكن الأبعاد هى اتجاهات البوصلة، فإن الأساس العربى هو جسم البوصلة ذاته.

والواقع أننا في دراسة أبعادنا الاقليمية كالبعد الآسيوى والأفريقى والنيلى والمتوسطى، كما فى دراسة دوائرنا المكانية كالدائرة العربية والإسلامية والأفريقية. يحسن دائما أن نميز موضوعيا ومنهجيا بين دوائر انتماء ودوائر علاقات. وفى كل الحالات فإن العروبة وحدها هى دائرة الانتماء. وكل ما عداها فدوائر علاقات.

والحقيقة المركزية بعد هذا أن الانتماء العربى هو وحده أيضا «جيروسكوب مصر» الذى يحفظ عليها توازنها واستقرارها بين ضغوط «وشدود» تلك الأبعاد بالدقة. فلقد كان لكل منها ثقله ووزنه الذى يجذب مصر فى اتجاهه ويكون أو يلون شخصيتها بدرجات متفاوتة من عصر إلى آخر، ولذا فإنه من الأهمية بمكان أن نقيم كل بعد منها ومدى إسهامه فى تكوين الشخصية المصرية وتوازنات التفاعل المتطور بينها جميعا كالدراسة فى العلائق المكانية والعلاقات التاريخية والمتوسعة والمتغيرة عبر العصور.

الفصل الأول

البعد الأسيوى

بين البعدين القاريين، يذهب الثقل والخطر دائما وأساسا من للبعد الأسيوى الذى يأتى أيضا مبكرا باستمرار، بينما يغلب أن يتأخر الأفريقى زمنيا. فعلى رغم أن مصر فى إفريقيا موقعا، فقد كانت أبدا فى آسيا وقعا. هى فى إفريقيا جغرافيا ولكنها فى آسيا بالتاريخ، فى إفريقيا طبيعيا ولكنها بشريا فى آسيا أكثر.

ولقد كان هيجل، وقبل راتزل الذى ضغط على الحقيقة كثيرا، ومن أوائل من وضعوا أيديهم عليها. ففى «فلسفة التاريخ» تعرف هيجل فى إفريقيا على ثلاث مناطق كبرى: الأولى جنوب الصحراء وهى إفريقيا بالمعنى الصحيح، ثم شمال غرب إفريقيا واعتبرها جزءًا من أوربا، ثم أخيرا وادى النيل الذى ألحقه بالنظم النهرية الأسيوية الكبرى، وعلى الأقل، فلقد كان الإغريق أحيانا يعتبرون الدلتا جزءا من آسيا تاركين الصعيد فى إفريقيا. كذلك كان العرب تربط الدلتا بالشام، والصعيد بالحجاز، يقول الكندى مثلا فى «فضائل مصر» «صعيدها أرض حجازية، حارة كحر الحجاز، وأسفل أرضها (أى الدلتا) شامى، يمطر مطر الشام».

وعلى الجملة، وفى كل الأحوال، ففى علاقاتها الخارجية كانت مصر القديمة أسيوية أكثر منها - أو بقدر ما هى - إفريقية[1]. وحتى دون أن ننسى المؤثرات الأسيوية فى القرن الإفريقى وشرق إفريقيا، يمكن أن نقرر بسهولة أن مصر هى أكثر إفريقيا أسيوية. والانحدار التاريخى والجاذبية الجغرافية فى مصر هى أساسا نحو الشمال عموما، والشمال الشرقى خصوصا. لماذا؟

الضوابط الموجهة

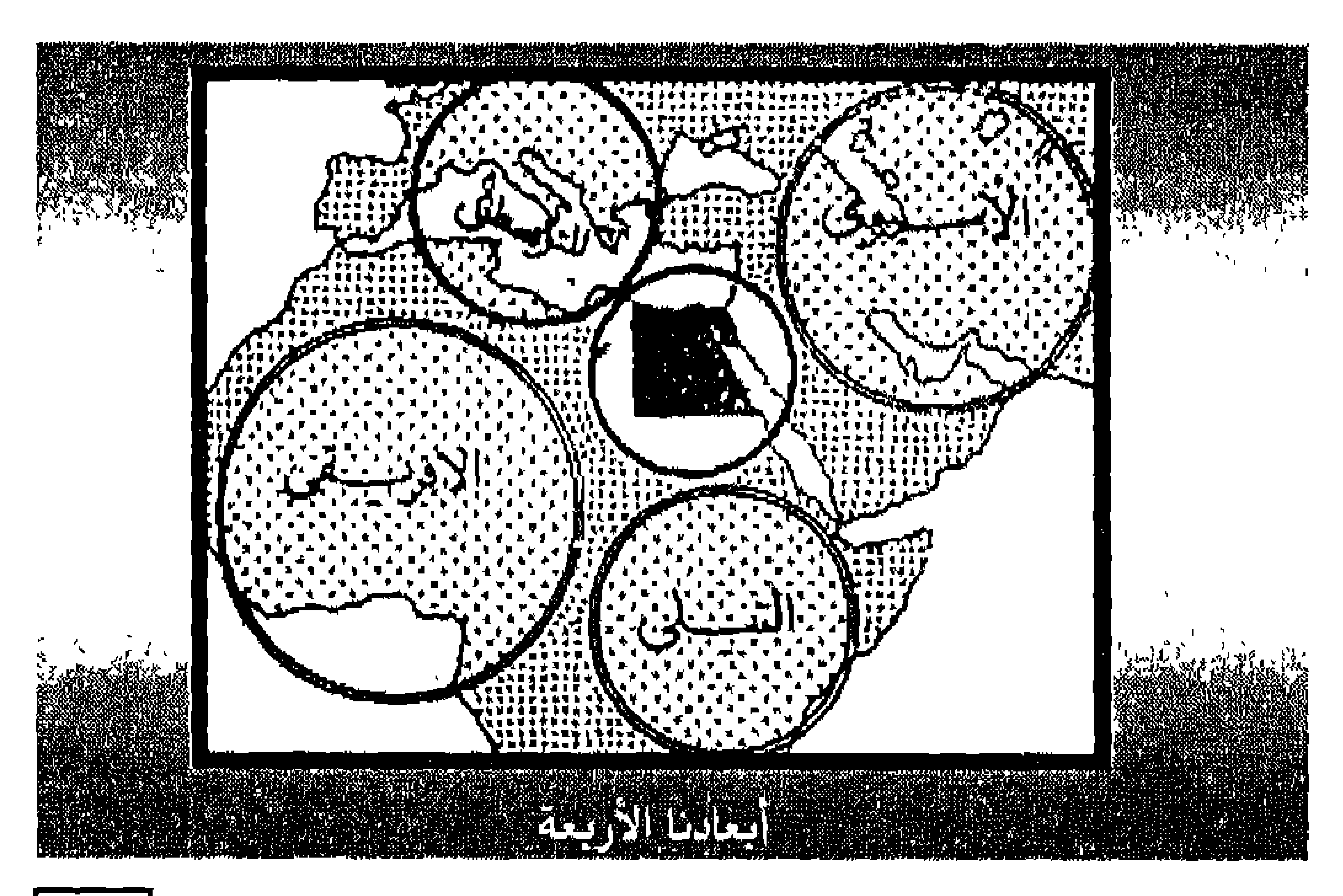
إن نظرة إلى الخريطة تكشف لنا حقيقة بسيطة ولكنها دالة. فالنيل فى مصر لا يجرى فى منتصف الصحراء ولكنه يجنح بتحيز واضح نحو الشرق، قل تقريبا بنسبة الثلث - الثلثين. ولو كان النيل يجرى أكثر غربية لتغيرت بلا شك اتجاهات التاريخ، على الأقل فى جزئياتها. خذ مثلا الفراغ العمرانى الفاصل بين أطراف المعمور المصرى وأطراف المعمور السورى من ناحية، وبينها وبين أطراف المعمور الليبى من ناحية أخرى. إن المسافة بين بورسعيد وغزة تناهز - كما تطير الطائرة - ٢٥٠كم، فى مقابل ٨٠٠ كم، أى ثلاثة الأمثال، بين الإسكندرية ومنتصف الجبل الأخضر. والدلالة واضحة: إن أقرب جار لمصر إنما يقع فى آسيا[2].

---

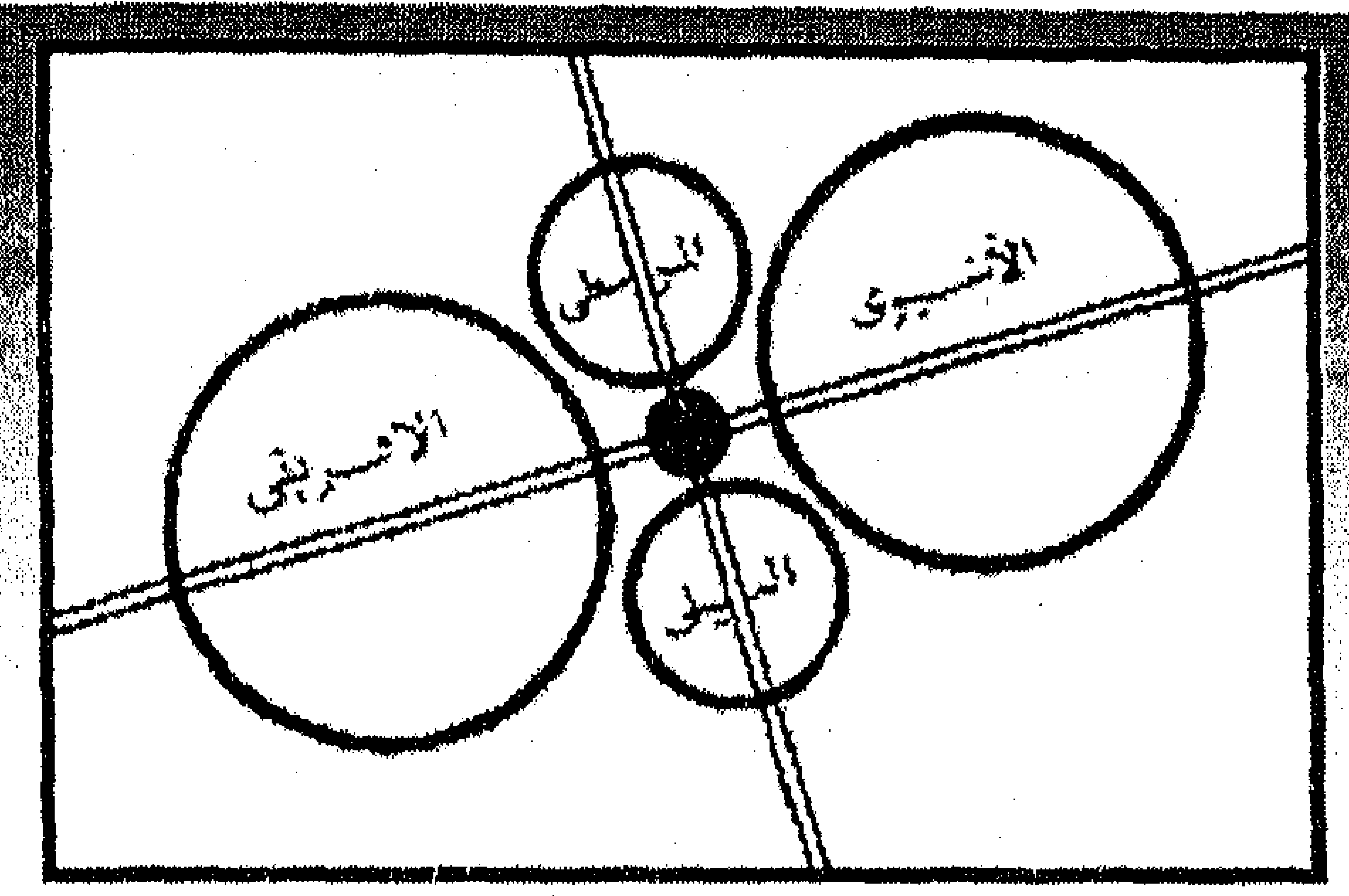
(1) W. Fitzgerald, Africa, 1950, P. 418.

(2) George, Relations of geog, etc., P, 278.

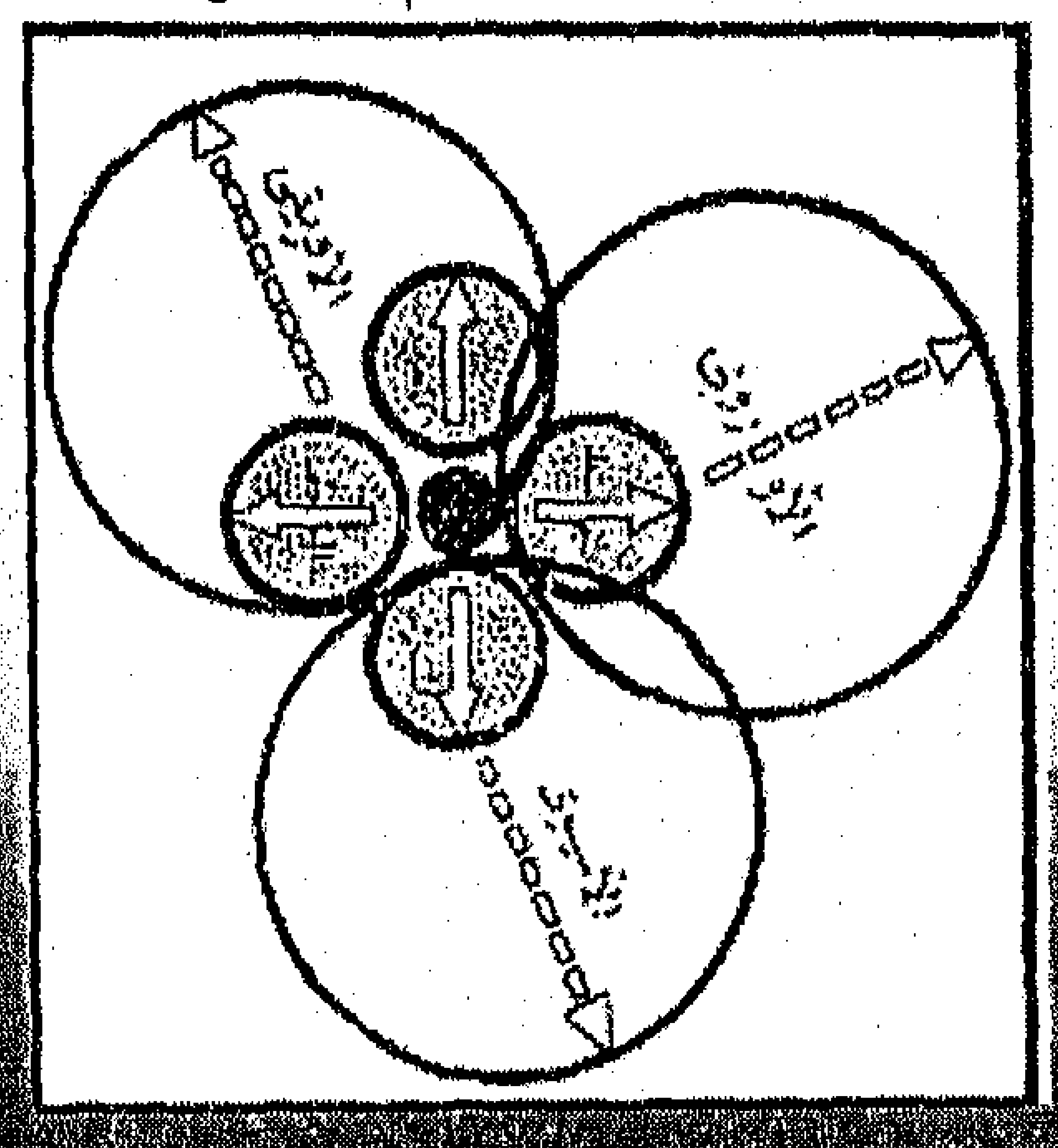
ولا شك بعد هذا أيضا أن الصحراء الغربية أصعب اختراقا وأقل انفتاحا Qccessibility من الصحراء الشرقية. حقا إن الأخيرة أشد وعورة. جبلية مضرسة. فى حين أن الأولى هضبية ممهدة نوعا، إلا أن ما أصلحته التضاريس نسبيا أفسدته القحولة المطلقة تماما. أما الصحراء الشرقية فأكثر ماء وحياة. وحتى تضاريسها الصعبة ليست عقبة مطلقة بفضل أوديتها العديدة. وإذا كان الطريق المحورى للحركة فى كلتا الصحراوين يتركز فى الشريط الساحلى الشمالى. فإن هذا الفارق العام بينهما يصدق عليه بالدرجة نفسها. ولهذا وذاك جميعا. لم تكن مصر أسيوية أكثر منها إفريقية فى توجهها الجغرافى فحسب، وإنما كذلك كانت مشرقية أكثر منها مغربية.



أبعادنا الأربعة



أبعادنا الأربعة : رسم تخطيطى



أبعادنا الأربعة القارية والإقليمية: كروكى تخطيطى

ثم إن النيل لا ينحدر ويصب شمالا فحسب. ولكن وزنه وثقله الفعلى يزداد كلما تقدم شمالا مع اتساع الوادى عموما. ولقد رأينا كيف أوشكت الكأس أو الزهرة المصرية أن تكون مثلثا مسحوبا جدا وبالغ الاستطالة. وأهم من ذلك أن الدلتا وحدها تضم ثلثى مصر مساحة، سكانا وإنتاجا وثروة. فاندفاع جسم مصر، بطبيعة توزيع مراكز الثقل فيه، هو نحو الشمال. كذلك فإن الشمال دائما وطوال التاريخ كان كأمر واقع مركز الحضارات العالمية الفعالة والقوى السائدة الفاعلة، كان موطن الأخطار كما كان مصدر النفوذ المؤثر. كل ما فى مصر إذن ينظر ويتجه إلى الشمال، وكل مصر بدورها تلتفت وتتطلع إلى الشمال. إن بوصلة مصر الجغرافية موجهة طبيعيا، سواء داخليا أم خارجيا. نحو القطب الشمالى، والشمال هو قمة وقبلة مصر جميعا.

وبعد هذا أيضا فإن الدلتا مفتوحة مكشوفة من الشرق والغرب، تؤدى تلقائيًا إلى سيناء التى تحمل فى إقليم جفارها جسرا بريا إلى آسيا هيأته الطبيعة بكثبانها الرملية وبما تختزن من مياه الأمطار لأن يكون المدخل الشرقى لمصر ومفتاحها الأم[1]. بل إن سيناء كما رأينا كانت دائما تثير السؤال: إفريقية أو أسيوية؟ وأيا كان الرد. فهى حلقة الوصل بين القارتين، وهى موصل جيد إلى

---

(١) عباس عمار، المدخل الشرقى، القاهرة، ١٩٤٦.

القطاعات الشمالية الهامة من مجالنا الأسيوى. بل إنه إذا كانت مصر بعامة هى العقدة التى تلحم المشرق العربى والمغرب. فإن سيناء هى العقدة التى تلحم مصر بالمشرق مباشرة.

وإلى جانب سيناء يأتى البحر الأحمر كدهليز طويل يفضى بمصر إلى غرب الجزيرة العربية حتى اليمن، مثلما كان طريقا لها إلى القرن الأفريقى، وبذلك يشارك فى البعدين الأسيوى والأفريقى. أى إن لنا أن نتساءل – كما تساءلنا عن سيناء – عما إذا كان البحر الأحمر بحرا أسيويا أو إفريقيا. والواقع الجغرافى أن كليهما عنصر «إفريقاسى». ومما له دلالته أن هذا ينسحب على شرق البحر المتوسط نفسه حيث يتقاسمه الساحلان السورى والمصرى. أى الأسيوى والإفريقى، وحيث يبدو هو الآخر بحرا «إفريقاسيا» بقدر ما هو بحر أوربى. بل من الطريف أن الجزء من البحر المتوسط الواقع إلى الجنوب من كريت مباشرة كان يظهر على خرائط القرن ١٩ باسم «البحر الأفريقى» تمييزا له عن البحر الأوربى الواقع شمالها[1]. وكل هذا التداخل أو التجاذب بين الأسيوية والإفريقية يؤكد البعد الأسيوى فى هذا الجزء المتطرف من إفريقيا.

فإذا عدنا إلى البحر الأحمر بقليل من تفصيل، فهنا كان وادى الحمامات – طريق قنا القصير (١٠٠ ميل فقط) – يقوم كخاصرة

---

(١) زينب عصمت راشد، كريت تحت الحكم المصرى، القاهرة، ١٩٦٤ (الخريطة الأخيرة).

للصحراء الشرقية بدور مناظر ولكنه مصغر لدور شريط سيناء. ومنذ التاريخ المصرى القديم وهو يلعب دورا تكميليا فى توجيه مصر الأسيوى وارتبط فيه أساسا بالقطاعات الجنوبية الأقل أهمية. وإذا كان المصريون القدماء قد سموا هذا الطريق «طريق الآلهة» اعتقادًا منهم بأنه طريق أجدادهم الأول[1]. فربما جاز لنا بالمقابلة أن نصف طريق سيناء «بطريق الغزاة» لكثرة ما عبرته الجيوش.

غير أنه من المفيد أن نذكر أن طريق القصير يتضاءل كلية بجانب طريق سيناء، إذ لا نكاد نعرف موجة أو حملة أتت عن طريقه يقينا إلا حملة أو «تجريدة» الهند فى القرن الماضى. على أنه من الناحية التجارية لم يعدم قدرا كبيرا من الأهمية حيث كان مخرجا ومدخلا أساسيا لتجارة المرور بين البحرين عن طريق الصعيد والوادى، لاسيما أن القطاع الشمالى من البحر الأحمر لم يكن مرغوبا فى ملاحته لأخطار العواصف والشعاب المرجانية، كما كانت تهدده أحيانا الأخطار الشمالية كأيام الصليبيات. هذا فضلا عن أنه كان طريق الحج التقليدى فى العصور الوسطى. وتنعكس كل هذه العوامل على تاريخ موانى جبهة هذا الطريق خاصة القصير والسويس.

---

(١) أحمد فخرى، فى: دراسات فى العالم العربى، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٨٣.

قطب فى دائرة الحلقة السعيدة

من محصلة هذه الضوابط الأولية – جنوح النيل إلى موقع شرقى، صعوبة اختراق الصحراء الغربية، توجه مصر الشمالى، ثم توجيه طريقى سينا والقصير – دخلت مصر فى علاقة حميمة مع غرب آسيا. والواقع أنه قبل أن يولد العالم العربى وحتى اليوم كانت مصر لهذا تُكَوِّنُ قطاعا حيويا من الحلقة السعيدة، وهى تلك الحلقة من الأراضى الخصيبة أو الأكثر غنى التى تحيط بالجزيرة العربية. وكانت مصر تدخل فى هذه الدائرة عن طريق شريط سيناء الشمالى من ناحية ووادى الحمامات من ناحية أخرى. وكانت تلك الدائرة كاملة تجرى فيها تيارات التاريخ والحياة بلا انقطاع كالدائرة الكهربية المغلقة. وكانت مصر قطبا أساسيا من أقطاب هذه الدائرة. ولهذا كانت تقف على بوابة إفريقيا وتنظر إلى نافذة آسيا.

وعلى الضلوع الغربية لهذا الحلقة السعيدة، انبثقت منها وتداخلت معها أو انطبعت فوقها حلقة محلية أو ثانوية من مقياس أصغر، «الحلقة الصغيرة» كما قد نسميها، تلف حول البحر الأحمر وحوضه على طول سواحله الغربية والشرقية مستمرة عبر سيناء وباب المندب مع بعض توصلات فرعية عرضية عبر البحر كما عند القصير وجدة وبورسودان ومصوع.. الخ. فى هذه الدائرة

الكهربائيــة مــن الدرجــة الثانيــة كــانت تــدور حركــة التــاريخ الإقليمــى والتجارة والعلاقـات والهجرات بــلا انقطــاع، مــع وعكــس عقارب الساعة بلا تمييز، وذلـك بـين غـرب الجزيـرة العربيـة ووادى النيل، خاصة بين مصر والجزيرة فى الشـمال وبـين اليمـن والحبشـة فى الجنوب.

فيها، مثلا، تنقلت هجرة الحاميين القدماء من جنوب الجزيرة إلى القرن الإفريقى وحوض النيل حتـى مصـر شمـالا، بينمـا دلفـت فـى الاتجاه المقابل هجرة الساميين العرب مع الإسلام أو معهم الإسلام مــن شمـال الجزيـرة العربيـة إلى مصـر فالسـودان. وعلـى نطـاق محلـى أصغـر، انتقلـت جاليـة مـن صعيـد مصـر إلى مدينــة بالحجـاز قبــل الإسلام استقرت وتوطنـت، ويقـال إنـها أصـل أبنائـها الذيـن اسـتقبلوا النبـى محمدًا ﷺ بالترحيب قبـل فتـح مكـة. هـذا، وإذا كـان القطـاع الشمالى من هذه الحلقة الصغيرة - تماما مثلما فــى الحلقـة السعيـدة- هو أهـم قطاعاتها بحكـم الثقـل المصـرى، فإن العقـدة الحرجـة فيـها أيضا هى بكل وضوح عقدة سيناء الأرضية.

الاتصال الأرضى

للاتصال الأرضى عبر جسر سيناء إذن أثر كبير وقيمة بالغـة فـى توجيـه مصر نحو آسـيا وتوكيد البعد الأسـيوى فيهـا. والذيـن يقللـون عـادة مـن تأثير العوامــل الجغرافيــة جديـرون بـأن يراجعـوا أنفسـهم إذا تذكـروا أن الإسـلام. مثـلا، دخـل السـودان عـن

طريق مصر أساسا على رغم أن السودان والجزيرة العربية يتواجهان طويلا عبر البحر الأحمر، أو إذا هم تأملوا كيف أن تأثيرات العروبة والإسلام الهامة فى شرق إفريقيا من القرن حتى مدغشقر هى أساسا تأثيرات ساحلية وجزئية، بينما القطاع الشمالى الذى دخله العرب عن الطريق البرى عبر سيناء هو وحده الذى استعرب وأسلم تماما. ولهذا فإن لنا أن نتصور كم كان يتغير توجيه التاريخ المصرى القديم والحديث لو كان البحر الأحمر يمتد بكامل عرضه حتى يتصل بالبحر المتوسط.

إن اتصال مصر الأرضى بآسيا عبر سيناء، له أهمية بالغة فى تاريخ مصر، بل المنطقة العربية كلها. بل إن هذا الاتصال قد يكون أهم حقيقة منفردة فى تاريخ توجيه مصر كلها. وهو كحدث جيلولوجى يشبه - ولو بطريقة عكسية - انفصال الجزر البريطانية عن القارة الأوربية، وكلاهما قد يكون من الناحية التاريخية والبشرية أهم حدث جيولوجى أثر فى كيان البلد وتوجهه. لماذا؟ - فكر فقط فيما عسى كان يمكن أن يحدث لو أن خليج السويس، أو حتى العقبة، كان مستمرا حتى البحر المتوسط بفاصل مائى كامل؟ لا شك ابتداء أن الصبغة الأسيوية والبعد الأسيوى فى كيان مصر كاد يكون مختلفا جدا، محدودا إلى أقصى حد.

ثم هل كان من المحتم بعد هذا أن تصبح مصر - ومن ورائها المغرب العربى كله - عربية، ولا نقول حتى إسلامية، بالضرورة؟

أمـام كـل مـن مضيـق جبـل طـارق غربـا والبوسـفور شـرقا. تقـدم العـرب و/أو الإسلام، ولكنـهما عـادا فـارتدا وانحسـرا عـن الأنـدلـس والبلقان على الترتيب. هكذا، ربما، كان يمكن أن يكون حكـم بـرزخ السويس - لو كان مضيقا - موجة فانحسارًا ولا ننس أن المد العربى الأول كـان بريـا بصرامـة، وكـانت العقليـة العربيـة تخشى البحـر وتنأى عن عبوره.

لهـذا فليـس مـن الممكـن الجـزم بـأن خريطـة العروبـة والإسـلام كانت لتأتى حتما كما أتت بالفعل. بل أبعد مـن هـذا لتغـير تـاريخ مصـر والمنطقـة والعـالم كلـه، لأن المضيـق كـان سـيصبح طريـق العالم، وكطريق للعالم فلا شك أن المؤثرات الأوربية بـالذات كـانت ستكون أقوى بكثير فى مصـر، ولهـذا فليس معنـى أن مصـر كـانت ستصبح أقل أسيوية أنها بالضرورة كانت ستصبح أكثر إفريقية، وإنمـا علـى الأرجح أكـثر أوربيـة، وبالتـالى وبتحديـد أدق، كـانت حَرية أن تصبح أكثر متوسطية منها نيلية.

بالمثل، أو بالمقابل. لو كـان مضيـق بـاب المنـدب ملتحمـا بإفـريقيـا دون فاصل مائى، فلعل المد العربى هنـاك كـان يكـون أقـوى وأبعـد. وفى الحالين ربمـا كـان المـد العربـى الإسـلامى قـد اتجـه إلى الحبشـة وإفريقيا القرن والصومال ووسط إفريقيا أكـثر منـه إلى بحـر الـروم والمتوسط، ولكان محور امتداده طوليا أكثر منه عرضيا.

من كل هذا فلا غرابة أن كان المحور الشمالى الشرقى هو بوابة مصر الرئيسية ومدخلها، كان أكثر من «ترموبيل» مصر، منه دخلت جميع الموجات التى اكتسحت البلاد، فيما عدا أقلية نادرة أتت من الغرب كالليبيين فى مصر القديمة والفاطميين فى العصر الإسلامى، أو من الجنوب كالنوبيين أو الأثيوبيين فى العصر القديم.

نحو الشرق

وبغض النظر عن القيمة النسبية لكل من طريقى سيناء والقصير، فلقد صال أغلب نشاط مصر الخارجى فى الجبهة الآسيوية.

فكانت كل الحركات الخارجة من مصر وكل معاركها التاريخية تتم على أرض أسيوية. وقد كان إطار النشاط المصرى فى آسيا لا يخرج تقليديا عن الهلال الخصيب حتى أقدام الأناضول ومشارف الفرات وتخوم العرب البتراء. وإذا كانت مصر لم تصل فعليا فى مدها الأسيوى إلى قلب العراق فضلا عن فارس، بينما وصلت قوى مختلفة من كل منهما أكثر من مرة إلى مصر، فليس هذا لقصر مّا فى نفس الحركة المصرية. بل لعل العكس هو الصحيح، فقد كان لمصر بُعد آخر برمته هو البعد الإفريقى، بينما لم يعرف العراق أو فارس أبعادًا أخرى مماثلة.

على أن هذا الزحف نحو الشرق Drang nach Osten اتسعت رقعته فى القرن التاسع عشر حتى شملت الأناضول وكادت تشرف على

إسطنبول مرة، كما توغلت فى نجد والحجاز حتى اليمن من الناحية الأخرى. وفى كثير من فترات التاريخ كانت ولاية مصر تشمل ضمنا جزءا قل أو كبر من الشام وإيالاته، كما تمددت إلى غرب الجزيرة العربية أكثر من مرة.

ومن الناحية الدينية البحتة لم تنفصل مصر كذلك عن دائرة الحلقة السعيدة قط، سواء قبل الإسلام أم بعده. فمن الحقائق اللافتة للنظر أن مصر كانت دائما طرفا فى قصة التوحيد بفصولها الثلاثة، بينما قصة التوحيد بدورها لا تفهم فى كل مراحلها إلا بذكر مصر. ومصر مذكورة فى الكتب السماوية الثلاثة ذكرا متواترا إلى أقصى حد، بحيث تؤلف جزءا أساسيا من جغرافيا الأديان الثلاثة ومفتاحا جوهريا لتاريخها. بل إن مصر ونيلها وفرعونها ومدائنها وخزائنها هى البلد الوحيد المذكور بالاسم والتضمين مرارا فى القرآن.

وفيما عدا هذا، فإن مواطن الأديان التوحيدية فى سيناء وفلسطين والحجاز ترسم فيما بينها مثلثا أو سهما رأسه يشكل مماسا لمصر فى سيناء. فمصر أحد رءوس أو ضلوع مثلث الأديان. كذلك فلقد انصبت هذه الرسالات جميعًا فى مصر على التوالى، وإن كانت كل فرشة منها تطغى وتغطى على سابقتها حتى سادت آخرها فى النهاية، وإلى هذا، فإن مصر لعبت فى مراحل الدعوة إلى ثلاثتها دورا أو آخر فكانت لموسى عليه السلام

قاعدة ومنطلقا، ولعيسى عليه السلام ملجأ وملاذا، بينما كانت مع النبى محمد ﷺ هدية ونسبا.

وثمة هنا مفارقة طريفة، وهى أن درجة انتشار كل من الأديان الثلاثة فى مصر تكاد تتناسب عكسيا مع درجة ارتباط رسولها بمصر. فموسى عليه السلام أشدهم ارتباطا بمصر، ولد وعاش وتربى بها، بل يعده البعض مصريا بالأصل، ومع ذلك فلم تنتشر اليهودية فى أوجهها إلا انتشارًا جزئيا محليا جدا. أما عيسى عليه السلام فقد جاءها طفلا وأقام بها بعض الوقت، ولم تنتشر المسيحية فى أوجهها إلا نصف انتشار على الأكثر. أما النبى محمد ﷺ فهو وحده من بين أصحاب الرسالات الثلاث الذى لم يجىء إلى مصر، وإن كان وحده الذى أصهر منها، ومع ذلك فقد قدر للإسلام أن ينتشر بها الانتشار الأكمل الأشمل.

وفى كل الأحوال فإن مصر تبقى بطبيعة الحال مسرحا أساسيا لكل الأديان والرسالات، ومعظم الأنبياء والمرسلين، إن لم تجرِ معظم أحداث بعضها على أرضها فإن آثارها تحتفظ ببصمات أصابع البعض الآخر. فعدا سيناء التى تلخص أسماء الأماكن فيها كل قصة اليهودية واليهود ابتداء من عيون موسى وحمام موسى وحمام فرعون إلى جبل التيه وجبل موسى وجبل المناجاة إلى الوادى المقدس طوى، نجد سلسلة متصلة متعاقبة من المواقع والمواضع الدينية الدالة والهامة.

فمن قرية غيته وتل يهوذا قرب بلبيس بالشرقية أو قرية شلشلمون قرب منيا القمح غير بعيد أيضا حيث عاش يوسف وإخوته (خزائن الأرض) بأرض جاشان (وادى الطميلات)، إلى أون ومنف («المدينة» فى قصة سيدنا يوسف)، إلى شجرة المطرية ثم قرية البهنسا فى صعيد مصر حيث آوى ابن مريم وأمه («ربوة ذات قرار ومعين»)، إلى قرية الشيخ عبادة أو أنصنا القديمة، ملوى المنيا، من حيث جاءت ماريا القبطية زوج النبى ﷺ وأم ابنه إبراهيم.

قطاع عرضى و/ أو رأسى كامل للديانات التوحيدية الثلاث على امتداد قاطع لأرض مصر من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى عبر الصحراء وعلى مدى الوادى دلتا وصعيدا.

مع آسيا العربية

على أن أهمية البعد الأسيوى فى الشخصية المصرية. تلك التى تنعكس حتى منذ فجر التاريخ فى العنصر السامى المؤكد فى اللغة المصرية القديمة، الحامية أساسا، وفى النقوش السينائية الشهيرة الهيروغليفية الأصل وأصل الأبجديات جميعا ابتداء من القبطية والنبطية إلى الفينيقية والإغريقية، والتى تتكشف أشد ما تتكشف فى سيناء خاصة حيث تمثل قطاعا عرضيا ورأسيا من تاريخ المصرى – الأسيوى ورأس الحربة فى البعد الآسيوى – المصرى، نقول: إن هذه الأهمية زادت واكتملت خاصة منذ العرب

حين أخذت مصر الشخصية العربية كاملة فى اللغة والثقافة والدين، بل لم تلبث أن أصبحت بها قلب العالم العربى والعروبة وهمزة الوصل بين المشرق والمغرب وبين آسيا العربية وإفريقيا العربية. ومنذ العروبة، يلاحظ أن كل الدماء القريبة من الجبهة الأسيوية باستثناءات قليلة. فبجانب العرب، يصدق هذا على عناصر الأكراد والتركمان والغز والديلم ممن أتوا كمماليك الأيوبية والملوكية، كما يصدق على الأتراك، فيما بعد ومعهم الشراكسة، ثم فى القرن الأخير الأرمن وغيرهم. وفى نفس القرن اشتدت هجرة ودخول عرب الشام ولبنان وفلسطين إلى مصر.

وعند هذا الحد لابد أن نلاحظ بعض فروق محلية فى بعدنا الآسيوى. فعموما كان ارتباطنا بالقطاع الشمالى أقوى بدرجة أو بأخرى منه بالقطاع الجنوبى، لاسيما فى العصور القديمة قبل الإسلام. وذلك أن مصر إذ تتصل عن طريق سيناء بالشام والجزيرة العربية نجد اتصالها بالشام أقرب وأسهل. لأن الطريق الأساسى فى سيناء هو الساحل الشمالى المؤدى تلقائيا إلى الشام، بينما الاتجاه نحو الجزيرة العربية تغيير حاد ولفة طويلة. كما كان تباين البيئة فالإنتاج بين مصر النيلية والشام المتوسطى يحفز إلى التبادل التجارى، بينما ينقص صحراء الجزيرة العربية مادة التبادل إلى حد بعيد.

وعموما فلقد كانت علاقات مصر التاريخية مع الهلال الخصيب الشمالى من الحلقة السعيدة أقوى منها مع الهلال الخصيب الجنوبى من تلك الحلقة، ولكن مجىء الإسلام صحح الوضع نحو قدر أكبر من التوازن، ورفع ضغط أو نبض العلاقات بين الجزيرة العربية ومصر ثقافيا ودينيا وبموجات الهجرة من الأولى وبمواكب الحج والعمرة السنوية من الثانية.

ثم جاء البترول فى الوقت الحالى ليزيد التفاعل بينهما عن ذى قبل وأكثر من أى وقت مضى، تعاملا وتبادلا وهجرة وسياحة وعملا وسياسة. فالبترول أخرج الجزيرة العربية من عزلتها التى فرضتها عليها الصحراء والفقر. فى الوقت نفسه الذى أخرجت قضية فلسطين مصر من عزلتها التى فرضها عليها الاستعمار والإقطاع الحاكم منذ القرن ١٩. تعد مصر حاليا أكبر عامل تحضير وتعمير وتنمية منفرد فى كل الجزيرة العربية.

ولأول مرة تخرج الهجرة البشرية من مصر، ولأول مرة تخرج السياحة الدولية من الجزيرة العربية. وتستقبل مصر اليوم أكبر تيار من السياحة العربية الصيفية سواء من دول الخليج أم السعودية. وبالمقابل فإن حجم ووزن الهجرة المصرية المؤقتة أو العاملة فى الجزيرة العربية هى أكبر ما يوجد بالمشرق، بمثل ما إنها أكبر فى المشرق الآسيوى منها فى المغرب الأفريقى.

ولما كان بترول الجزيرة مركزا كله فى شرقها الأقصى، والكويت والإحساء وساحل الخليج، فإن التداخل والوجود المصرى فى الجزيرة لا يتركز أو يقتصر الآن على نصفها أو قوسها الغربى، الحجاز واليمن، مثلما كان السائد عادة طوال الماضى إلى ما قبل البترول، وإنما بات يغطى الجزيرة برمتها ويتغلغل فيها على كل المستويات الإقليمية والمحلية.

بر مصر وبر الشام

نتيجة

لهذا كله فإن كثافة العلاقات والتفاعلات بين مصر والقطاع الجنوبى من بعدنا الأسيوى تغلبت أخيرا على نظيرتها مع القطاع الشمالى، بعد أن ظلت الأخيرة تحتكر الصدارة المطلقة طوال التاريخ تقريبا. وبعد أن كان تباين الإنتاج بين مصر والقطاع الشمالى عاملا فعالا فى تلك العلاقة (محاصيل الرى الحارة هنا ومحاصيل البحر المتوسط هناك)، فإن تشابه التطور الحضارى والصناعى الحديث بينهما (اشتراك الطرفين فى القطن والمنسوجات) أضعف منها نوعا.

فالتبادلات والعلاقات التجارية اليوم بين مصر وكل من سوريا ولبنان والشام عموما والعراق أقل كثيرا بلا شك مما بين مصر وكل من السعودية والكويت وسائر دول وإمارات الخليج، ولو أن ما يقال عن مصر فى هذا يصدق على هاتين المجموعتين فيما

بينهما كذلك، كما أن علاقات وتبادلات ومعاملات كل من مصر فى جانب ووحدات الشام والعراق فى الجانب الآخر مع وحدات الجزيرة العربية المختلفة أصبحت تفوق تلك التى بينهما بكثير. انقلاب مادى وتجارى كامل، ولو أن النمط كله مرهون وموقوت بالبترول وسيعطى مكانه يوما مًا للنمط التاريخى القديم جزئيا.

ومهما يكن الأمر، فإن العلاقة بين مصر والشام عموما تظل «علاقة خاصة» فى أكثر من معنى. فلعل الشام هو أكثر ما ارتبط بمصر وتفاعل معها على امتداد بعدها الأسيوى، وذلك إذا أخذنا متوسط التاريخ. فثمة الجوار الجغرافى المباشر، ثم الوحدة الاستراتيجية الجذرية عبر التاريخ. وعن الجوار الجغرافى بالذات ينبغى أن نلاحظ أن بادية الشام تفصل الشام وتبعده نوعا عن العراق على رغم اتصالهما وتقاربهما فى أقصى الشمال. وفى أقصى الجنوب بالتحديد، حيث تتسع الصحراء إلى مداها يزداد الفاصل بين فلسطين والعراق إلى حد يبلغ أضعاف الفاصل الصحراوى بين فلسطين ودلتا مصر.

من هنا فإذا كان شمال الشام أقرب إلى شمال العراق، فإن جنوبه أقرب إلى مصر وإن يكن الشام والعراق، اللذان يؤلفان الهلال الخصيب، هما كالتوائم بين الأشقاء، فإن الشام ومصر أيضا هما فى الوطن العربى توأمان آخران إلى حد كبير. وتزداد هذه العلاقة تكثفا فى جنوب الشام، حيث تبدو فلسطين بالذات وهى من أكثر

جيران مصر تأثرا بها. وليس صدفة أن قاموسنا التاريخى كان يشير دائما إلى «بر الشام» كمقابل ومناظر «لبر مصر»، فهما ضلعا زاوية البحر المتوسط القائمة، ولا تعرف فى هذا القاموس «برين» آخرين سواهما، كأنهما وحدهما ضفتان لنهر واحد أو شاطئان لبحيرة واحدة.

مصر وفلسطين

ابتداء لنا بكل سهولة ويقين أن نقرر أن مصر إن تكن أكثر إفريقيا أسيوية وعروبة، فإن فلسطين هى أكثر آسيا والعروبة إفريقية ومصرية معا. تلك أبسط مبادئ منطق الجغرافيا والجوار الجغرافى، إن لم يكن الآن «كل الجيران أقارب» تقريبا كقاعدة أنثروبوجغرافيا شبه عامة، فبحكم الأمر الواقع والواقع التاريخى. فكما أن فلسطين بداية البعد الأسيوى فى كيان مصر، فإن مصر هى بداية البعد الإفريقى فى كيان فلسطين بالضرورة. وكلتاهما تعد بمثابة الزر والعروة التى تلحم كلا البعدين أو كما يفعل شقا الكبسولة. ولعلها أكثر من صدفة أن تزدوج مدينة رفح على جانبى الحدود – مثل نادر – رامزة كما يلوح إلى هذا الالتحام الأعم الأشمل.

فإذا فصلنا القول، فإن الفلسطينيين يبدون من البداية من أقرب العرب عموما، وعرب المشرق وآسيا خصوصا، إلى لهجة

ولون بشرة وطريقة حياة وحضارة. بل لعل فلسطين أن تكون من الحالات القليلة النادرة التى انتقلت إليها هجرة ودماء مصرية بدرجة هامة أو مذكورة قد تتجاوز فى تقدير البعض من الباحثين الفلسطينيين أنفسهم ومن جانبهم كل توقعاتنا وتصورنا التقليدى. على أية حال فإن تدفقات الهجرة والدماء والاندماج هنا كانت دائما مزدوجة فى الاتجاهين، على عكس المألوف أو السائد مصريا. أو كما وضعها العقاد كان المصريون والفلسطينيون فى مجال الهجرة فرسى رهان أو فرسى متقاربين[1].

فمنذ الحملة الفرنسية على مصر - إذا قصرنا أنفسنا على التاريخ الحديث فقط، كانت فلسطين ملجأ ومهربا أو منفى لكثير من المصريين فى فترات الاضطهاد أو الاضطراب أو المحن والأزمات، ابتداء من الحملة نفسها، إلى حملات محمد على وحروبه فى الشام وفلسطين ذاتها، إلى عملية السخرة فى حفر قناة السويس، إلى الحركة العرابية حتى تجنيد «أنفار السلطة» أثناء الحرب العالمية الأولى.. الخ.

وكما أن من هذه العناصر من عاد إلى مصر بعد إقامة طالت أو قصرت، فإن من الثابت المؤكد يقينا أن كثرة هامة منها

---

(١) حياة قلم، القاهرة، ١٩٦٤.

استقرت وتوطنت وانصهرت فى الكيان الفلسطينى، ولا تزال آثارها وذكرياتها باقية ملحوظة فى السحنة واللهجة وفى العادات والأسماء.. الخ.

والأخير بالذات، أسماء الأشخاص والعائلات، تعد كشافا جغرافيا أمينا وباقيا يشى بالأصل المصرى عموما ويشير إلى شرق الدلتا خصوصا، حيث تتواتر - إلى جانب اسم «المصرى» بصفة عامة - أسماء مثل العريشى، الشرقاوى، والبلبيسى، الانشاصى، والزعبلاوى، والدمياطى.. الخ[1].

لا خلاف إذن على الأثر والدم والوجود المصرى المادى فى الكيان الفلسطينى وتكوين فلسطين. ولكن ما قد يكون محل خلاف هو فقط تقدير حجم تلك العناصر والمؤثرات وذلك الخروج والهجرة ثم مدى الاستيطان أو العودة. فمن جهة وجد نابليون فى يافا نحو ٤٠٠ مصرى، أمر بإعادتهم إلى مصر حين رفضوا الالتحاق بجيشه. أما محمد على فإنما كانت ذريعته فى حملته الأولى على فلسطين هى بالدقة مطالبه بإعادة المصريين الفارين من سخرته وبطشه، والذين يقدر عددهم بنحو ٦٠٠٠.

ولكن المهم حقا هو ما حدث فى النهاية. ذلك أن جيوشه المنسحبة من الشام فى آخر عهده خلفت وراءها «ألوفا من المصريين اصبحوا

---

(١) إبراهيم محمد الفحام، «المصريون والفلسطينيون شعب واحد»، مجلة العربى، أكتوبر ١٩٨٢، ص ٤٢-٤٤.

بعد حين من الدهر كأهل الشام فى مناحيهم» على نحو ما كان من أمر الألوف السابقة التى كانت ذريعة الحملة والذين كانوا قد «تفرقوا فى أنحاء فلسطين، وأحالتهم بودقتها شاميين» كما يذكر محمد كرد على[1].

أما المؤرخ الفرنسى مورييه فيحدد لنا تلك الآلاف المتخلفة بما لا يقل عن ١٤٠ الفا مرة واحدة (كذا)، حيث إن عدد افراد الجيش من قوات ومدنيين وعائلات كان قبل الانسحاب ٢٠٠ ألف. عاد منهم إلى مصر ٦٠ الفا فقط كما يذكر[2]. ولما كان هؤلاء المتخلفون قد اندمجوا وانصهروا فى أبناء البلاد كما يؤكد مورييه هو الآخر أيضا، فإن أثرهم - إن صحت تلك الأرقام الضخمة - لا يمكن المبالغة فيه بحال فضلا عن تجاهله أو التقليل منه.

وهنا فعلا يصل بنا كاتب فلسطينى ثقة هو عمر البرغوثى إلى ذروة مثيرة حقا. ولكنها منطقية للغاية مع المعطيات السابقة. حين يقدر أن «أكثر من عشر سكان فلسطين يمتون إلى أصل مصرى، ثم يضيف مفسرًا بعد هذا التقدير المثير «هاجرت عائلاتهم مع جيش إبراهيم باشا إلى فلسطين، ثم التجأت عائلات أخرى فرارا من السخرة والشدة فى حفر القنال..»[3].

---

(١) محمد كرد على، مجلة الهلال، إبريل ١٩٤٠.

(٢) الفحام، ص ٤٤.

(٣) عمر الصالح البرغوثى، الوزير البازورى، ١٩٤٧، ص ١١.

ومهما يكن التقدير، فإن الأثر المصرى يتركز أكثر ما يتركز فى الساحل، ما بين خان يونس وعكا. وعلى المستوى التفصيلى، يؤكد عارف العارف أن المصريين كانوا أهم عنصر من عناصر السكان الذين استطونوا غزة على مر الأحقاب[1]» ، بينما نعرف نحن اليوم أن بالقدس نحو ٢٠٠ أسرة قبطية مصرية متوطنة هناك منذ أجيال.

فلسطين ومصر

فى الاتجاه المقابل، إذا انتقلنا الآن إلى الجانب الآخر من الصورة، فلعل من التكرار وحده أو من التزيد حقا أن نضغط على الأثر والتدفق الفلسطينى على مصر. فمنذ القدم والقبائل عربية الأصل من الجزيرة العربية والموزعة بين الشام ومصر، تمثل قاسما مشتركا وحلقة وصل بين الجانبين. فالسماعنة والسواركة، التياها والترابين، الرميلات، الأخارسة والمساعيد.. الخ، لكل هذه القبائل فروع وبطون فى كل من مصر وفلسطين، وما زالت العلاقات اليومية العادية متصلة بين الجانبين كأقارب.

ودعنا لا ننس إلى هذا أن كثيرا من هذه القبائل وغيرها هجر البداوة واستقر فى صميم الريف المصرى وذاب وتمصر تماما[2]. وما زالت أسماء

---

(١) عارف العارف، تاريخ غزة، ١٩٣٤، ص ٣١، ٣٥.

(٢) الفحام، ص ٤٣ – ٤٥.

الأماكن – مرة أخرى – تكشف تلك الأصول. مثال ذلك قرية السماعنة بالشرقية، نسبة إلى قبيلة السماعنة[1]، أو قرية برقين بالدقهلية، فهى سمية للقرية الفلسطينية الأم، وهكذا.

أما فى العصر الحديث، فكما لجأ كثير من المصريين إلى فلسطين هربا من سخرة حفر القناة، فإنها بعد ازدهارها بالمدن والنشاط اجتذبت- بين ما اجتذبت - كثيرا من الفلسطينيين إلى الهجرة إليها والاستيطان بها. وكما لا تخلو مدينة فلسطينية الآن من واحد من «البلابسة» أى المصريين أبناء بلبيس أصلا، يكثر «النبالسة» و«الخلايلة» أى الفلسطينيون من أبناء نابلس والخليل أصلا، فى مدن مصر ابتداء من الأقاليم حتى العاصمة[2].

وإلى قريب كانت التجارة والبقالة وتسويق الصابون والزيت لصيقة بالفلسطينيين المقيمين إلى حد أن كان البقال عندنا يعرف بالفلسطينى أحيانا أو بالشامى عموما فى الغالب. ولن نكرر هنا أسماءهم الجغرافية الدالة، ابتداء من عكاوى وقدسى وصفدى إلى اليافى والغزى أو الغزاوى.. الخ.

أخيرا فلا حاجة بنا أن نذكر أثر الكارثة الإسرائيلية على فلسطين وتدفق عشرات الآلاف من الأشقاء على مصر حيث يقيمون الآن، بعضهم

---

(١) محمد رمزى، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية.

(٢) الفحام، ص ٤٥.

يندمج، وبعضهم يتقدم فى التجارة والأعمال، فهذا شأن المستقبل مثلما هو مسألة الحاضر، والأمر كله مرهون بالقضية والصراع.

وإنما ينقلنا هذا انسيابيا إلى القفلة الختامية للبعد الأسيوى وتقييمه العام فى كيان مصر جملة. فالواضح فى الوقت الحاضر أن الثقل الأكبر من السياسة القومية لمصر المعاصرة يتجه إلى الجبهة الأسيوية، لا شك بفعل القضية الفلسطينية أساسا، تلك التى أصبحت - بطريقة أو بأخرى شئنا أم أبينا - جوهر ومحور وجماع سياسة مصر الخارجية فى الواقع.

وإذا كان هذا التوجيه الأسيوى عودا فى الحقيقة على بدء قديم التاريخ، فإن قضية فلسطين بالدقة تؤكده اليوم كما تحتمه، تماما مثلما فعلت الحروب الصليبية فى العصور الوسطى. فمنذ حرب فلسطين خاضت جيوش مصر معاركها الأساسية على الجبهة الأسيوية، بما فى ذلك اليمن.

وإنه لمن الواضح جدا. فى الخلاصة، أن البعد الأسيوى هو البعد المحورى فى توجيه مصر الخارجى، فضلا عن انه أساس علاقة أخذ وعطاء من طرفين، تمتاز هذه العلاقة بالاستمرار والاطراد دون ذبذبة أو تقطع. ولا شك أنها غير علمية إطلاقا، إن لم تكن مغرضة حقا، تلك التى حاولت حينا ما أن تبتر بعدنا الأسيوى بزعم انه «لم يجئنا من آسيا خير قط» إشارة إلى أخطار قديمة كالمغول والترك.. الخ، فهى إشارة مبتورة ناقصة بقدر ما هى ملتوية مضللة.

الفصل الثانى

البعـد الإفريقـى

كما يتداخل الكل مع الجزء والعام مع الخاص، يتداخـل هـذا البعـد مع البعد النيلى حتى ليمكـن أن نزعـم أن القطاع الأكبر من بعدنا الإفريقى إنما هو ببساطة بعدنا النيلى، يكمله من يمين قطاع ثانوى نسبيا علـى طول البحـر الأحمـر وشـرق إفريقيـا، ومـن شمـال قطاع آخر يجمـع المغـرب العربـى والصحـراء الكبرى. ولهـذا يحسـن أن نتحـدث عـن البعـد الإفريقـى بإيجـاز وتعميـم قبـل أن نـركـز علـى جوهر البعد النيلى.

وواضح أن أرض مصـر تربـة ومـاء جزء مـن جسـم إفريقيـا. وإذا كنـا قـد رأينـا أنـها - بحكـم موقعها علـى أطـراف القـارة بعيـدًا عـن قلبها- تعد أكثر أجزاء إفريقيا أسيوية، فإنها ليست بالضرورة أقلـها إفريقيـة وإن كـانت مـن أقلـها بـالطبع. أمـا السـكان فمـن النظريـات كمـا رأينـا مـا تربطهم بـالقرن الإفريقــى أصـلا وتـرى للحـاميين ومنطقة تكوينهم لا تخرج عن دائرة القرن الإفريقى، وإليهم ينتمـى أولئك وهؤلاء[1]. غير أننا إذا قبلنا نظرية عصر الجفاف التى أعقبـت

---

(1) Seligman, Races of Africa.

العصور الحجرية القديمة، فلعلها لا تحتم بالضرورة وفى حدود هذا المدى الزمنى أن يكون المصريون من أصل غير محلى أو إقليمى.

من الناحية الأخرى، فمن الأثيوبيين القدماء من كان يعتقد أن المصريين القدماء بعض من نسلهم أصلا، هاجروا إلى الشمال، وان مصر بذلك بشريا، لحما ودما، من صلب الحبشة، مثلما هى طبيعيا، أرضا وماء[1]. ولكن لعل هذا نوع من الأساطير الشعبية التى تنبثق من تاريخ ضبابى مهتز، أو ربما هى تذكرنا بتقاليد المصريين القدماء أنفسهم حيث كانوا يسمون بلاد بونت «أرض الأجداد».

وايا ماكان الأمر. فإن هناك اتجاها متزايدا هذه الأيام - ربما كرد فعل متطرف لمحاولات الاستعمار المترفة لتمزيق القارة - للبحث عن تلك الأصول فى مجال الأركيولوجيا الإفريقية والإنسان الأول. غير ان هذا اتجاه تحف به مزالق علمية كثيرة ككل ما يتصل بالماضى السحيق، وقد يُرَتَّب نتائج ضخمة على فروض ونظريات تخمينية. والذين يفعلون ذلك ربما كانوا يفعلون أسوأ مما يفعل أصحاب الفرعونية، فهم لا يعودون فقط إلى الماضى البعيد المكتوب، ولكن إلى الماضى السحيق قبل المكتوب وقبل التاريخ ولا نقول قبل الإنسان العاقل!

---

(1) G. Schweinfurtg, in: Bacdeker, Egypt and Sudan, 1914, P.xlix.

الدور الحضارى

حسبنا أن نقول، إن مصر التى كانت طليعة ومهد الحضارة فى وإنما القارة، قد صدرت إليها كثيرا من إنجازاتها منذ فجر التاريخ. فلقد جعلت الظروف الجغرافية والتاريخية من مصر مشعل النور الأكبر فى القارة المظلمة، ولا نقول، منارة إفريقيا الوحيدة حضاريا. وإذا كان ثمة فى العلم بند واحد تصدر قارته على مستوى القمة أطول فترة فى التاريخ بلا انقطاع، فهو - لا شك - مصر فى إفريقيا. إنها أكثر بالتأكيد من أى بلد آخر فى العالم قمة قارتها المطلقة والخالدة، وإذا كان هناك بلد منفرد فى إفريقيا أعطى القارة وأثر فيها أكثر ما تأثرت قبل العصر الأوربى. فمصر هى هذا البلد. ودون عنصرية أو استعلاء، ومع الفارق، فلقد كان المصرى هو (الرجل الأبيض) فى إفريقيا السوداء إلى أن جاء الرجل الأوربى.

وفيما عدا هذا، فالواقع حضاريا أن مصر ليست إفريقية بقدر ما إن إفريقيا هى المصرية. فبينما لم تكد مصر تستمد شيئا من إفريقيا حضارة، فإن تأثيرها الحضارى قد غزا معظم القارة. فالكثير من حضارة إفريقيا هو جزء من حضارة مصر، ومعظم إسلام القارة مر من هنا. وعلى الجانب الآخر، فإن إفريقيا – القارة المظلومة التى يصفها البعض بأنها حضاريا آخر القارات قبل أنتاركتيكا[1]! – لا تجد بين جنباتها

(1) G. T. Renuer Africa: astudy in clonoilism, in: World Political geography, ed. Pearcy and Fiffeld, N. Y., 1951, P. 939.

وبناتها أكثر من مصر ترد به الاتهام وتفاخر العالم، فهى أم التاريخ فى قارة قيل: إنها بلا تاريخ.

غير أن تأثير مصر الحضارى على إفريقيا ونشاطاتها فيها واتصالاتها معها تتفاوت فى الكثافة والنوع والدرجة من إقليم إلى آخر بحسب الضوابط الطبيعية والمسافة الجغرافية. فهى أقوى فى نصف القارة الشمالى بعامة، ثم تقل وتتخلخل تدريجيا تجاه الجنوب. وهى فى النصف الشمالى تنتقل فى شبكة من محاور وقنوات ترسم نمطا مميزا يعكس الوراء أضخم أبعادا ومسافات ولكنه أضعف كثافة واتصالاً. يكاد يكرر نمط الحلقة السعيدة الذى وجدناه فى المشرق العربى.

فإذا كان النيل والمغرب يؤلفان معا الهلال الخصيب الإفريقى الضخم فى الشمال، فهناك هلال آخر أقل وزنا يكمل الدائرة فى الجنوب وإن اتصلت حدوده وضاعت فى كتلة المعمور المدارى إلى الجنوب. هذا الهلال يمتد من السودان النيلى على طول نطاق السفانا وإقليم «الساحل» (وصحته السهل)، ويمثل هوامش الصحراء كما تسمى فى السودان الغربى) حتى غرب إفريقيا والسنغال حيث ينثنى شمالا على سواحل موريتانيا واصلا إلى المغرب العربى والحلقة كلها تتحلق حول الصحراء الكبرى - القلب الميت - التى لا تخترق إلا على محاور من خطوط الواحات. وعلى امتداد هذه الخطة تحرك النفوذ والأثر والإشعاع المصرى عموما.

على محور الجنوب

فخارج البعد النيلى، تأكد هذا الأثر مرارا على محور البحر الأحمر منذ رحلات بونت الدالة. يلاحظ هنا أن بونت إن كانت تعنى عند بعض المؤرخين دائرة القرن الإفريقى والجنوب العربى، فإنها تمتد عند البعض الآخر لتشمل ساحل الزنج وزنجبار وشرق إفريقيا بلا استثناء. كذلك يحتمل إشعاع مصرى خفيف على محور الصحراء الكبرى حيث وجدت أدلة على المؤثرات الحضارية المادية والثقافية بين القبائل النيلوتية فى أعلى النيل وبين بعض قبائل نيجيريا وغرب إفريقيا[1].

بل إن هناك إشارة غريبة عن معرفة الطوارق الأحياء اليوم للغة الهيروغليفية القديمة، إن صحت لكانت أكثر دلالة وأشد إثارة[2] والقول أيضا، إن الفولا، فى نطاق السفانا ابتداء من سودان النيل حتى السنغال، والذين يقدرون بعدة ملايين ويلعبون دورا عظيما فى حياة غرب إفريقيا، القول بأنهم أصلا هجرة من صعيد مصر استدارت نحو الجنوب فالغرب فاستقرت فتوطنت[3].

---

(١) عبد العزيز كامل. دراسات فى إفريقية المعاصرة، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٧٣ -٧٩.

(2) Lois Berggren, in: Guidebook to geology and archaeology of Egypt, P. 39.

(٣) محمد رياض، كوثر عبد الرسول، إفريقيا، ١٩٦٦؛ ص ٤٠٩.

كذلك تسجل العصور الوسطى علاقات متواترة بين مصر والسودان الغربى وغرب إفريقيا على طول محور السفانا – الساحل (السهل) وعبر خطوط الواحات ونيل السودان، إذا كان طريق الحج السودانى هنا مباشرا إلى مكة قبلة الدين، فقد كان الأزهر قبلة علم الدين. ولهذا انشعب إلى مصر باستمرار تيار من الطلاب والتجارة والحكام ترك له بعض شواهد وبقايا فى مصر (كالدكرور مثلا من التكرور وهم التوكولور احد شعوب غرب إفريقيا). اهم من ذلك رد فعله الحضارى والثقافى الكبير الباقى حتى اليوم على شعوب هذه المناطق التى عرفها جيدا وذكرها ابن خلدون وابن بطوطة. ويكفى تعبيرا عن هذا الأثر ان كل مستكشفى شمال القارة من الأوربيين فى القرنين او الثلاثة الماضية سجلوا دهشتهم لأنهم وجدوا ذكر مصر وهيبتها فى كل مكان وصلوا إليه فى تلك الأعماق[1].

على محور الشمال

ذلك كله عن علاقات مصر الإفريقية على المحاور الجنوبية. ولكن العلاقات على محور شمال إفريقيا جاءت من نوع آخر اذخلَ فى الوجود العربى الكبير. وهى والبعد النيلى بمثابة ذراعين طويلتين ضخمتين تنتهيان إلى مصر لتتصلا عن طريقها بالحلقة السعيدة فى المشرق العربى. فمنذ البداية دخلت مصر مع الليبيين فى احتكاك بعيد

---

(١) مؤنس، مصر ورسالتها، ص ٤٠ – ٤٣.

(1) Seligman, id., p, 140.

المدى بالغارات والحملات وبالتسرب والتوطن، سواء فى غرب الدلتا أم جهة الفيوم والصعيد، بل وأسسوا كما رأينا إحدى الأسرات فى تاريخ مصر. ومن الناحية الأخرى فما أكثر ما امتد التوسع والنفوذ السياسى المصرى إلى برقة، خاصة أيام البطالسة والعرب. كذلك كان الرومان يعتبرونها جزءا من مصر. وحتى من قبل ذلك كله. كان فخار القبايل فى جرجرة بالجزائر اليوم يشبه فخار قدماء المصريين قبل الأسرات، فضلا عن تشابه الجنس، مما يؤكد قدم وعمق هذا المحور[1].

وإذا كانت أخطار الشرق والمشرق قد صرفت نظر مصر عن برقة بعض الوقت فى العصور الوسطى. فإن الأثر الحضارى لم ينقطع، وظلت برقة تتجه إلى مصر كمركز وسوق حضارى والعمران الكبير، ولا زال طابع المؤثرات المصرية واضحا فى برقة إلى اليوم. (على هامش، فلما كان نمط العمران فى برقة مشتتا يتوزع حول الجبل الأخضر على أطرافه الساحلية وأقدامه الصحراوية، فقد كان يبدو من الأسهل أحيانا على أبنائها أن يتلاقوا فى الإسكندرية أو القاهرة على نهاية الطريق الساحلى. تماما كما يقال عن ويلز حيث يتندر بأن من الأسهل لأبنائها أن يجتمعوا فى بادنجتون فى لندن على نهاية خط السكة الحديدية!).

وأيا ما كان الأمر. فلقد أعادت ظروف الاستعمار الإيطالى وهجرة والتجاء البرقاويين إلى مصر تأكيد هذه العلاقات، بمثل ما استشعرت

---

(1) Seligman, id,. P. 140.

طرابلس وتونس قديما ظلا من الطابع المصرى غير المباشر عند هجرة بنى هلال وسليم من صعيد مصر فى العصور الوسطى. واليوم يمثل أولاد على بمريوط - وهم قبائل عربية وافدة أصلاً - حلقة وصل بشرية بين مصر وليبيا والمغرب الكبير، على نحو ما تفعل القبائل العربية المماثلة على الجانب الأيمن من مصر حيث تتوزع بينها وبين فلسطين والشام والجزيرة العربية.

وعدا هذا فقد كانت مصر بوابة التعريب بالنسبة للمغرب كله. وتواترت العلاقات المتبادلة فى العصور الوسطى متجاوزة جزيرة العرب إلى غرب الصحراء الكبرى فى موريتانيا (شنقيط)، حيث تطلع الشناقطة إلى مصر وتأثروا بها ثقافيا بشدة على نحو ما فعل السودان الغربى على محور السفانا جنوبا. أيضا كان هناك على مستوى علاقات الدفاع طريق التحذير الساحلى الشهير بنيراته «ومحارسه»، بينما وصلت العلاقات السياسية إلى قمتها فى الغزو الفاطمى لمصر.

غير أن الحج لا شك خير ما يلخص كل علاقات هذا المحور. فقد كان «الركب المغربى» يصل أحيانا إلى ٥٠ ألفا من الحجاج فى العام[1]. وكان طريق الحج رافدا سنويا أو دائما يصب مؤثراته بهدوء فى مصر. وإليه ترمز اليوم العشرات من أضرحة ومقابر الشيوخ المغاربة أو المستغربين من أصل عربى على طول ساحلنا الشمالى الغربى ثم إلى قلب الدلتا، ابتداء ذلك من سيدى برانى وسيدى كرير وسيدى عبد الرحمن، إلى سيدى

---

(١) مصر ورسالتها، ص ٣٢ – ٣٨.

المرسى والشاطبى (الإسكندرية)، إلى الشيخ الدسوقى (دسوق) والشيخ طلحة التلمسانى (كفر الشيخ). والأخيران، اللذان تنسب إليهما مدينتاهما كما هو واضح. هما من أقارب السيد البدوى (طنطا) الذى يعد القطب الأكبر بين هؤلاء الشيوخ المغاربة، الذين توغلوا أيضا إلى أعماق الصعيد كما فعل سيدى عبد الرحيم القناوى (قنا) .. الخ.

والواقع أن طريق الحج الساحلى كان طريق رحلة واستقرار معا، حج وتعمير، بما كان يستقر على طوله من المغاربة، وخاصة فى مصر، وبالأخص فى القاهرة حيث نما لهم حى بذاته وهو حى المغاربة. وهو بهذا يشبه أن يكون نسخة متوسطية عربية من طريق حج السفانا - الفلاتة فى السودان الغربى والشرقى.

وقد انصب فى هذا التيار فيما بعد رافد من مغاربة الأندلس، وذلك بعد أن تعرض «المغرب الأوربى» لضربات «الاسترداد» المسيحى، اتوا مصر إما كمنذرين منبهين وإما كنازحين مهاجرين[١]. فى القرن- الثامن الميلادى - مثلا - نزحت ١٥ ألف أسرة أندلسية إلى الإسكندرية[٢] ونستطيع أن نقرا رمزا للرافد الأندلسى هذا فى أسماء مثل المرسى (من مرسية) والشاطبى (من شاطبة Jativa) والطرطوشى (من طرطوشة Tortoza).. الخ.

---

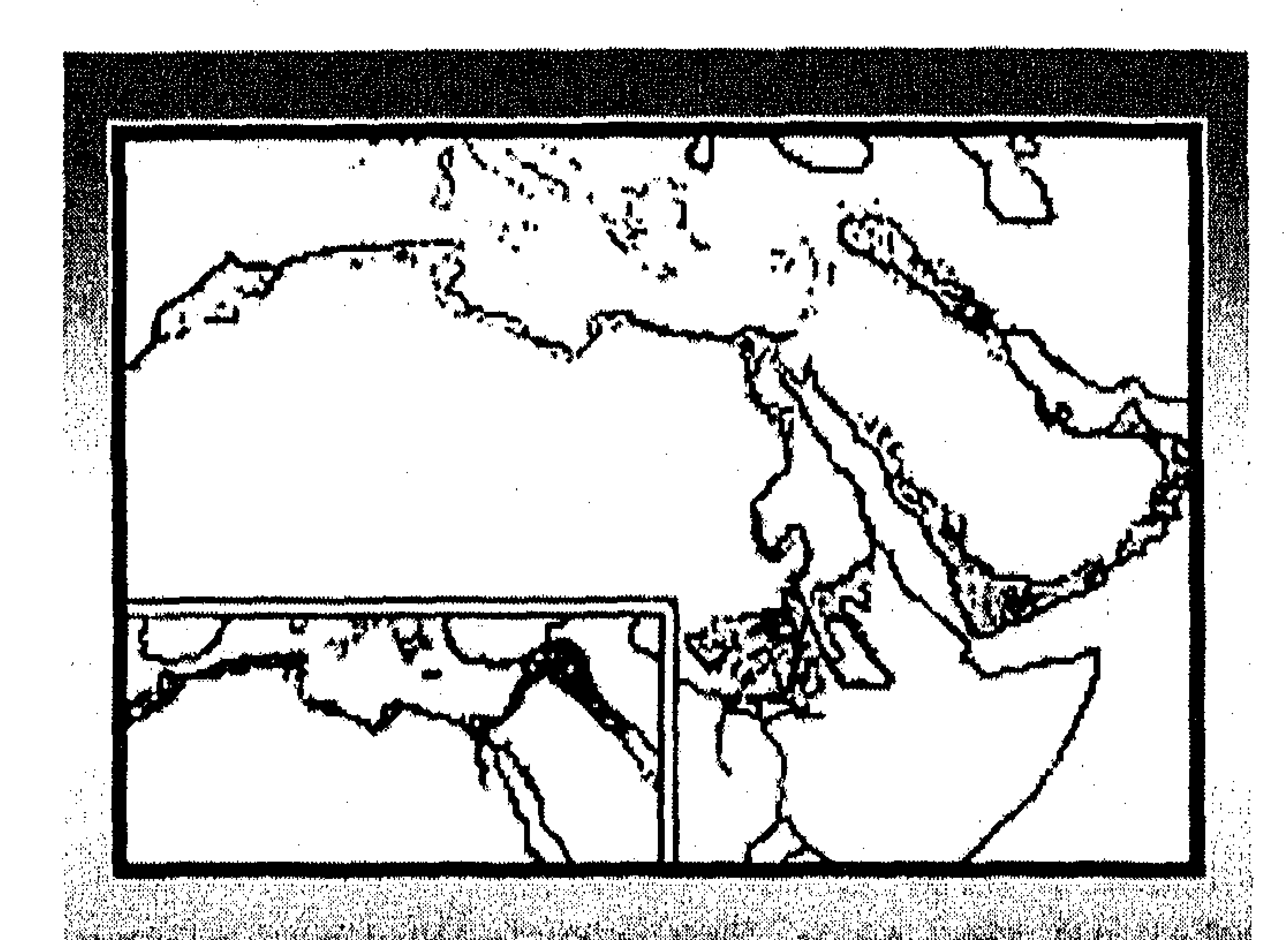
(١) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد، ١٩٧٦، ص٥٢٧.

(2) Sm Lane – Poole, History of Egypt in the Middle Ages, P. 35.

وكما فى حالة البعد الأسيوى، فإن الكفاح المشترك ضد الاستعمار والاستعمار الاستيطانى فى المغرب العربى عموما، ثم ظهور البترول فى معظم وحداته بعد ذلك، جاءا فى الفترة الأخيرة ليعيدا تدعيم وتكثيف العلاقات والتبادلات والتفاعلات على طول هذا المحور. فكما شدت قضية تحرير فلسطين مصر إلى المشرق، شدتها ملحمة الجزائر إلى المغرب. ثم جاءت حاجات التنمية والتعمير بعد البترول، خاصة فى ليبيا، وكذلك إعادة التعريب فى الجزائر، لتخلق تيارًا من الهجرة المصرية إلى الغرب ومهجرا مؤقتا فى المغرب. ولقد يقل وزن هذا البعد نوعا عن نظيره فى المشرق، كما أنه على العكس منه يقل كثافة وثقلا كلما ابتعد عن مصر، إلا إنه يظل علامة بارزة على محور رئيسى داخل هيكل البعد الإفريقى لمصر.

والآن فلنلخص فى نظرة مجملة، إن أبرز خصائص بعدنا الإفريقى انه فى الدرجة الأولى بُعد طبيعى خام أكثر مما هو بُعد حضارى فعال متفاعل. وعلى هذا الجانب الأخير، فإنه إرسال أكثر مما هو استقبال، إن لم يكن محض إرسال، أى من طرف واحد وليس متبادلا. ثم إنه بُعد بشرى أكثر منه بُعد اقتصادى، حيث كانت علاقات التبادل والعامل الاقتصادى ضعيفة أو محدودة للغاية. ولكن حتى مع ذلك فإنه التشابه أو النسب الجنسى فيه. والواقع أنه لولا القطاع النيلى والمغربى او العربى عموما فيه، لتضاءل وزن البُعد الإفريقى عموما إلى حد بعيد جدا. وختاما - وهذا أغرب ما فى الأمر- فإن ظهوره كبُعد من أبعادنا

الجغرافية تأخر كثيرًا جدا حيث ظل واهيا معظم التاريخ القديم، ولم يزدد إلا ببطء شديد فى العصور الحديثة، بينما لم يأخذ حجمه الكامل إلا أخيرا منذ عصر التحرير فقط.



هيكل المعمور الأساسى فى الوطن العربى يتألف من الحلقة المعقودة فى الشرق تتصل بها ذراعان عظيمان هما حوض النيل من الجنوب العربى من المغرب. أما إذا ضيقنا بؤرة عدستنا فستبدو أهم قطاعات المعمور كهلالين خصيبين يلتحمان فى مصر هما الهلال الخصيب الأسيوى والإفريقى.

مصر بين العروبة والإفريقية

تلك بعامة هى الخطوط العريضة فى علاقات واتجاهات مصر الإفريقية. ومن السهل إذن أن نرى أن البعد الإفريقى فى كيان مصر يتفق فى معظمه وباستثناء هوامش ثانوية مع المجال العربى سواء ذلك فى دائرة النيل أم الصحراء أم المغرب. من هنا يبرز السؤال، أين وكيف تقع مصر بين العروبة والإفريقية، وما العلاقة بين الوحدة العربية والوحدة الإفريقية؟

إفريقتان أم واحدة ؟

ابتداء يمكن القول: إن إفريقيا العربية هى أقل إفريقيا إفريقية وأكثرها أوراسية بمعنى أنها بحكم فاصل الصحراء أبعد أجزاء القارة عن مفهوم «إفريقيا السوداء» سواء طبيعيا أم بشريا، تضاريس ومناخا ونباتا أو جنسا وحضارة وثقافة، وفى الوقت نفسه بمعنى أنها أكثر أجزاء القارة بالمؤثرات الأوربية والأسيوية فى كل تلك المجالات والنواحى. وفى هذا تشترك مصر مع شمال إفريقيا أو المغرب. ولكن مصر بعد هذا هى، بحكم الموقع أيضا، أكثر إفريقيا أسيوية وأقلها أوربية، بينما المغرب هو أكثر إفريقيا أوربية، أقلها أسيوية.

هنا، ومن الحقيقة، وعملا على عزل العرب وإبعادهم عن القارة الأم، لاسيما مصر التى لعبت مؤخرا دورا قياديا وتحريريا فى السياسة مثلما

لعبته قديما فى الحضارة، حاول الاستعمار أن يمزق وحدة القارة النضالية ضده. فزعم أولاً أن الصحراء الكبرى فاصل طبيعى باتر كالمحيط، يقسم القارة إلى قارتين: إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء: أو إفريقيا البيضاء (أو السمراء أحيانا) وإفريقيا السوداء، أو أخير إفريقيا العربية وإفريقيا النجية. باختصار، صك الاستعمار، أو بالأحرى استغل، ثنائية أساسية فى القارة هى ثنائية العرب - الزنوج، وبها حاول أن يجب أى وحدة إفريقية.

والنظرية، التى تكاد تبدو وكأنها الوجه الآخر لنظرية الاستعمار الأخرى عن وحدة البحر المتوسط تنتهى إلى خلق تعارض مقصود بين فكرتى الوحدة العربية والوحدة الإفريقية. وهى تصورهما كأنهما خطان متعامدان، واحد بالعرض والآخر بالطول: إذا قلت بالوحدة الإفريقية شطرت الوحدة العربية، وإذا قلت بالوحدة العربية مزقت الوحدة الإفريقية. ومن ثم تبدو النظرية كلها سلاحا ذا حدين بل متعدد الحدود. يمزق كل شىء وفى كل اتجاه سواء فى العروبة أم فى إفريقيا، وهذا بالضبط هو الهدف الأساسى سياسيا.

وحدة عمل فحسب

غير أن القضية بهذه الصورة هى فى الحقيقة قضية متطرفة ومغرضة. فمن ناحية لم تكف المؤثرات العربية أو المصرية عن اختراق الصحراء منذ فجر التاريخ القديم. ومن المبالغة - لا شك - أن نتكلم عن الصحراء كمحيط رملى فى عصر الطيران. ومن ناحية

أخرى. وهذا أساس كل خلط وخطا، فليس المقصود بالوحدة الإفريقية إلا «وحدة عمل»، وحدة تضامن فى المجال الدولى سياسيا واقتصاديا وحضاريا مواجهة لضغوط الاستعمار المشتركة. وحدة إفريقيا، تعنى، هى أساسا وحدة ضد - استعمارية، لا أكثر ولا أقل.

اما خارج هذا فلا وحدة لإفريقيا إلا الوحدة الجيوديزية، اى ككتلة من كتل الأرض الرئيسية مما نسميه القارات. وبين هذين القطبين القصيين، الوحدة ضد الاستعمارية والوحدة الجيوديزية. فإن احدا لم يزعم أن إفريقيا وحدة أو ان لإفريقيا وحدة من اى نوع كان، سواء طبيعيا ام بشريا. مناخيًا ام نباتيا أم جنسيا أم حضاريا. والإفريقيون، بمعنى الزنوج، من جانبهم لا يعتبرون مفهوم إفريقيا أو وحدة إفريقيا إلا فى حدود وإطار إفريقيا الزنجية. وبينما هم ينظرون الى انفسهم كشىء واحد على العموم ينظرون إلى العرب كشىء مختلف تماما على الخصوص. وهم فى هذا يفعلون تماما مثلما يفعل العالم الخارجى بعامة[1].

وواقع الأمر أن فلسفة الاستعمار فى ثنائية القارة من اجل تمزيقها نضاليا ليست إلا حقا يراد به باطل. ولقد كان خطأ أن انعزلت مصر قبل الثورة (وغيرها من الشقيقات العربية الإفريقية) عن إفريقيا، ولو ان ذلك كان بفعل الاستعمار الجاثم فوق الجميع. وكان طبيعيا جدا بعد

(١) حمدان، إفريقيا الجديدة، ص ٢٩٣ - ٢٩٧.

ذلك أن تندفع مصر المتحررة إلى إفريقيا تحمل مشعل التحرير في الخمسينات والستينات. ولا جدال أنها نجحت في ذلك نجاحا باهرا، بل لعله أكبر نجاح لنفسها في السياسة الخارجية والدولية، ولا يكاد يختلف احد على أن نضال مصر كان أكبر عامل منفرد في تحرير القارة. لقد اكتشف مصر، بحق، بعدها الإفريقي الأصيل، وعلى هذا الأساس تصرفت.

لكن الغريب هنا أن الاستعمار نجح في ان يضلل أبناء القارة في الاتجاه المضاد. فكرد فعل لفلسفة الاستعمار المتطرفة في تمزيق نضال القارة التحررى، ظهرت بين بعض زعماء القارة الجدد، خاصة بين الراديكاليين المتشنجين الذين تبنوا عنصرية جديدة مضادة أو مقلوبة، ظهرت دعوة مُدَوِّية إلى «الوحدة الإفريقية» لا كوحدة موقف وكفاح ضد الاستعمار أو ضد التخلف، من أجل التحرير أو التقدم، وإنما كوحدة سياسية دستورية من اجل خلق «دولة» إفريقية واحدة تشمل كل القارة.

وإذا كان من الخطأ أن مصر قد انعزلت أو عُزلت عن القارة في الماضى، فقد كان خطأ أكبر احتمال تورطها في مثل هذه الدعوة الكاسحة الفضفاضة، إذ إن أسوأ خطر وهذا حين اتخذت دعوة الوحدة الإفريقية منعطفا شبه هيستيرى أرعن أيام نكروما. فوحدة مثل هذه، على أى مستوى كانت، غير واقعة أو متصورة على الإطلاق، تقع خارج العلم تماما، وهى من ثم مرفوضة شكلا وموضوعا.

تشخيصا أو تلخيصا للموقف بإيجاز، كان الاستعمار قد باعد بين مصر (والعرب) وبين إفريقيا أكثر مما ينبغى، فجاء التحرير فقارب بينهم - كرد فعل عكسى وعلى طرفى النقيض - أكثر مما ينبغى. فى الأولى كان انفصال أكثر من اللازم، وفى الثانية حدث اتصال أكثر من اللازم حين أخذ شكل الوحدة الإفريقية بالمعنى المنحرف الذى اصطنعه بعضهم. ولكن هذا الانقلاب من النقيض إلى النقيض كان مرحلة عاطفية متطرفة ليست غير شائعة فى مراحل الاستكشاف والتعارف والتقارب.

غير أن صدمة الحقيقة والواقع لم تلبث أن بددت الأوهام والمزايدات مثلما أزاحت المناقصات من قبل، واستقر البندول كما هى القاعدة دائما على التركيب بعد التقرير فالنقيض، أى على الحد الأمثل للعلاقة، وهو الوحدة بمعنى التضامن الإفريقى. سقطت بذلك انحرافة الوحدة الدستورية المزعومة.

وبالفعل، لحسن الحظ، ولأنه - فى السياسة كما فى الحياة - لا يصح إلا الصحيح، فقد تهاوت هذه الدعوة الطائشة المتهافتة فى بضع سنين حتى اختفت نغمتها تماما. والواقع أن حركة الوحدة الإفريقية بمعناها الصحيح لا تعدو وحدة تضامن ضد الاستعمار، وهى بهذا المعنى جزء من حركة وحدة العالم الثالث وسائر

تجمعات «الجنوب» العالمى. وعلى هذا الأساس فإنها فى صميمها وجوهرها «فترة تعشيش nesting period» مريحة للجميع ورفقة طريق فى رحلة التحرير وإثبات الذات، تتساند وتتساعد خلالها ضد العدو الاستعمارى المشترك، ولكنها فى النهاية رحلة عابرة ككل رحلة، بعدها تنصرف كل جماعة إلى مصالحها المحلية أو الإقليمية وكياناتها الذاتية. وهكذا بالفعل كان[1].

بهذا عادت الوحدة الإفريقية كما بدأت، وكما ينبغى «وحدة عمل» فحسب، بينما ظلت الوحدة العربية «وحدة كيان ومصير». الأولى لا تستهدف الوحدة الدستورية، والثانية جوهرها الوحدة الدستورية والاندماج السياسى. بصيغة أخرى العرب إخوة وأشقاء ولكن الإفريقيين جيران وأصدقاء، علاقة مصر مع العرب علاقة قرابة حيث علاقتها مع الإفريقيين حسن جوار.

من ثم فإن الوحدتين العربية والإفريقية هما من مستوى مختلف تماما، وهو اختلاف فى النوع لا الدرجة، جذرى لا فرعى، ومن ثم فلا تعارض بينهما. ولهذا فليس على مصر جناح أن تولى وجهها شطر إفريقيا وبعدها الإفريقى كما فعلت دائما، وليس لها أن تنسى أنها بوابة القارة وحارسها فى الشمال الشرقى، ونقطة الارتكاز بالنسبة لها فى التضامن الأسيوى الإفريقى، بمثل ما إن إفريقيا هى الظهير الضخم لمصر وإن مستقبلها مرتبط بمستقبلها

---

(١) حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، ١٩٨٣، ص ٣٣٦ – ٢٦٧.

فـى الصـراع العـالمى ضـد الاسـتعمار، كـل أولئـك دون أن تضعـف عروبتها فى أى معنى.

ومن هنا، بالمقابل، نرى أن ما طالب بـه البعـض فـى وقـت مَّا مـن النص دستوريا على أن مصر جزء من إفريقيـا بمثـل مـا ينـص علـى أنها جـزء مـن الأمـة العربيـة، إنمـا هـو قيـاس مـع الفـارق وينبـع مـن منظور خـاطئ يَضَعُ الوحـدة العربيـة علـى نفـس مسـتوى الوحـدة الإفريقيـة. فإن ننص على عروبتنا فى الدستور، وهو تعبـير سياسى عن مضمون قومى، ومن ثم فهو أمـر فـى موضعـه السليم. أمـا أننـا جـزء مـن إفريقيـا فحقيقـة جغرافيـة بديهيـة مجـردة لا يسـتتبعها بالضرورة أى التزام سياسى أو قومى حتمـى، ولـذا فمكانـها الطبيعـى فى كتاب الجغرافيا، ولكنها جديرة بأن تبـدو فـى الدسـتور فضـولا وتزيدا لا محل له.

سياسة مصر الإفريقية

وعلى المستوى التطبيقـى: فـلا مفـر مـن أن يكـون لإفريقيـا مكـان هـام فى السياسـة المصرية. أولا: لمصلحة الاقتصـاد والتنمية والتقدم المصرى نفسـه نظـرا لـثراء إفريقيـا النـادر بـالموارد والخامـات والأسواق والإمكانيات المتزايدة التى تتكالب عليها الدول المتقدمة الآن بل حتـى بعض الشقيقات العربيـات خاصـة البترولية. ثانيـا، لضمـان الأمن المصرى وتامين ظهرها الإفريقى، حيث لا ينبغـى أن تـترك مصـر إفريقيا فراغا سياسيا أو فـراغ قـوة يملـؤه الاسـتعمار الجديـد أو القـوى

العظمى ويحاصرها به من الخلف. ثالثا، لمواجهة التسلل أو التوغل الإسرائيلى فى إفريقيا ومحاصرة أخطبوطه وطرده من القارة حتى لا يكسبها لصفه أو يؤلب دولها ضد مصر والعرب والقضية الفلسطينية.

وتلك بالدقة حدود العلاقات العملية بين مصر وإفريقيا – وحدود لا شك هناك للبعد الأفريقى فى كيان وتوجيه مصر. وهى حدود، كما ينبغى تحقيقها، لا ينبغى تجاوزها. ولحسن الحظ فلقد انتهت إلى الأبد فترة المثالية الجامحة الهيستيرية فى العلاقات الإفريقية، واستقرت الآن على مستوى عقلانى ومعقول أكثر، أى تم، «تطبيعها normalization » تقريبا.

مع ذلك فإن البعض يشعر أن دور مصر الإفريقى الحالى مضخم ومبالغ فيه ما يزال، إن لم يكن مفتعلا إلى حد ما لأسباب تكتيكية وتعويضية، وأن هذا على أية حال عارض سوف يقل مستقبلا إلى أن يأخذ حجمه الطبيعى، هذا إن لم يكن قد بدأ فعلا، إذ من الواضح تماما أن مصر أخيرا اتخذت سياسة إفريقية أكثر حذرا وتحفظا أو أقل اندفاعا وغلواء منها فى السابق.

كذلك يشعر البعض الآخر بأن علاقتنا مع إفريقيا أو علاقات إفريقيا معنا لا تخلو من حساسيات وعقد مركبة وأن فيها شيئا من النفاق المتبادل وأكثر منه من اللاواقعية. وفى وقت مّا بدا أن

إفريقيا أو أجزاء منها تلعب معنا لعبة المضاربة وتوازن القوى بين العرب وإسرائيل. فى محاولة انتهازية مكشوفة لأن تنتزع لنفسها أكبر مكاسب ممكنة من الطرفين على السواء. ولكن من الإنصاف أيضا أنها عادت فصححت موقفها كثيرا أثناء حرب أكتوبر. كذلك فإن أرباح البترول الهائلة بعد هذه الحرب جذبت إفريقيا أكثر من أى وقت مضى إلى المعسكر العربى المنتصر والمتخم، ولو أنها عادت بعد ذلك «تغازل» إسرائيل، وهكذا.

وأخيرا، ففى خضم هذه العلاقات الجديدة لضغوط أكثر واقعية ومادية أو نفعية، بدأت العلاقات العربية - الإفريقية دول حديثة النشأة ضعيفة التكوين للغاية، فإنها بعيدة عن الاستقرار تماما. والصراعات داخلها وفيما بينها وحولها لا حد لها، وبالتالى فإن التدخلات الأجنبية الاستعمارية لا تتوقف. ومن ناحية أخرى، فلأن سياسات الدول العربية هى الأخرى قد تعارضت وتصادمت فى الآونة الأخيرة وانقسمت ما بين الكتلتين العالميتين، مثلما غيرت مصر نفسها موقعها السياسى بينهما جذريا، فلقد ازدادت التناقضات والمجابهات بين مصالح وسياسات الجميع فى إفريقيا.

وفى النتيجة، ولأول مرة، بدأت تظهر جرثومة تعرض وتناقض ما بين الوحدة العربية والوحدة الإفريقية. فمن الظاهرات اللافتة حاليا أن دولا إفريقية، مثل ليبيا مع تشاد، والمغرب حول الصحراء،

أو أزمات بعض الدول الإفريقية مثل صراع الصومال وإثيوبيا وإرتريا وإثيوبيا، والصراع فى زائير.. الخ. ففى مثل هذه المواقف المربكة الشائكة المتشابكة. قد تجد مصر نفسها، سواء بحكم المصالح أم المبدأ. فى صف الدولة الإفريقية ضد العربية أو العكس. فهل تجوز الأولى؟ - والعروبة أولاً والإفريقية عاشرا. وإن كانت الثانية، افلا يكرس هذا ثنائية الوحدتين والقارة ويوسع الهوة الكامنة فيهما؟

على أية حال، دعنا نأمل أن تكون مثل هذه المواقف مرحلة عارضة وعابرة فى تاريخ القارة. غير أن الدرس الواضح أن على مصر الا تتورط فى إفريقيا وحروبها واضطراباتها وصراعاتها المحلية والدولية. ومن حسن الحظ أنه قد أعلنت مؤخرا أنها لن تلعب دور رجل البوليس فى إفريقيا[1]. ليكن حسن الجوار إذن وصداقة الجميع بقدر الإمكان شعار سياسة مصر الإفريقية، ولكن المساعى الحميدة فقط هى ترجمته العملية.

لتكن علاقتنا مع إفريقيا قوية فى الاقتصاد والتجارة والتبادل، فضلا عن التعاون السياسى فى المسرح الدولى. والأوربى، لأن إفريقيا قارة المستقبل فى الخامات والاستثمارات، حتى لا تظل أوربا والغرب دائما الوسيط بيننا وبينها. والثانية، لأننا ما زلنا ضعافا بالقياس إلى القوى العالمية، وحتى لا ينفرد الآخرون بالقارة.

---

(١) الأهرام ١٨٠ - ٨ - ١٩٧٨، ص ٣.

ولكن أبعد من هذا لا يجوز ولا يجدى، لا سياسة ولا ثقافة ولا حضارة. فنحن فى الواقع أقرب إلى أوربا والغرب فى هذا كله منا إلى إفريقيا. بل لعل درجة قربنا من إفريقيا الحقيقية هى أقل ما فى العالم إطلاقا. وما من شك بالمقابل أن أوربا أقرب إلينا جنسا وحضارة ودينا وثقافة وتاريخا فضلا عن المسافة الجغرافية البحتة. تلك حدود الجغرافيا، ومن يتعد حدود الجغرافيا فَقَدْ فَقَدَ التاريخ.

الفصل الثالث

البعد النيلى

النهر المؤشر

لأن مصر هى النيل، أو لأن النيل هو مصر، فما من ربط لمصر بخارجها أقوى وأعمق من النيل، وما من منطقة خارجية يمكن أن ترتبط بها مصر أكثر وأشد من تلك التى يربطها بها النيل. ولهذا كان حقا وحتما ان يجىء البعد النيلى فى طليعة أبعادنا الخارجية أولا، ومحوريا فى بعدنا الإفريقى على وجه التحديد ثانيا.

وابتداء سيلاحظ ان نمط الصعيد الخطى الطولى ليس اقتصاديا من حيث العمران أو المواصلات أو الإنتاج، لأن كل هذه المجالات إنما تخدم الحد الأدنى من السكان إذا اعتبرنا وحدة المسافة. ويكفى أن نعلم أن الاثنى عشر الف كيلو متر مربع ونيفا التى تؤلف مساحة الصعيد وتمتد نحو ١٠٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب يمكن أن تستوعبها دائرة مكتنزة قطرها ١٢٥ كم فقط. شكل جغرافية الوادى إذن قد لا يكون الأمثل الجغرافى الاقتصادى، ولكنه للسبب نفسه مثالى للاستراتيجى ولأغراض الحضارة والتاريخ.

فالصعيد الخطى هو فى الحقيقة الذى وسع رقعة مصر الكلية بان أضاف إليها الرقعة الكبرى من غلافها الصحراوى. ولو كان

الصعيد ملموما كالدلتا لكانت رقعة مصر الكلية أصغر مما نعرف بكثير. وهذه نقطة بديهية ولكنها هامة جدا، كما أنها أوضح من أن تستدعى التطويل وإن تحملته بالتأكيد.

وأهم من هذا - أو لا يقل أهمية - أن الصعيد الخطى هو الذى اعطى لمصر عمقا حضاريا فى إفريقيا، فهو سهم مرسل نحو قلب القارة حمل حضارة مصر وثقافتها، مخترقا الصحراء فى مضاء ونفاذ يتحاشى بهما بقدر الإمكان الميكانيكى الاحتكاك بحواجز الصحراء العنيدة. ولو كان الصعيد ملموما كالدلتا، لتغير بلا مراء تاريخ علاقة مصر بالقارة، ولكانت أسيوية أكثر مما هى الآن. ولأعطت ظهرها للقارة الأم بصورة أو بأخرى.

وعلى العكس من هذا، لو أن نيل النوبة بثنيته المسرفة فى الالتواء، مضى مستقيما مباشرا لكان رباطا أوثق ولكانت مصر أكثر إفريقية وأقل أسيوية مما هى الآن. ومع ذلك كله فقد كانت الصحراء أبدا عائقا خطيرا فى سبيل تعميق هذا البعد النيلى وتمديده سواء غربا أم جنوبا، كما كانت جنادل النيل - التى يعدها البعض المرشح الجنسى أو الحد الشمالى للمؤشرات الزنجية أو المتزنجة فى حوض النهر - عقبة أخرى فى طريق الشريان الوحيد إلى قلب القارة. ولهذا كانت حدود النفوذ المصرى لا تتعدى غالبا الشلال الثانى أو الثالث وأحيانا الرابع، ولو أن النفوذ الحضارى توغل كثيرا حتى إثيوبيا القديمة.



مصر الخطية ودوائرها المساحية.
يمتاز المعمور المصرى بالشكل الطولى الشديد، طول بلا عرض، كالنمط الشيلى نحو ١٢٠٠ كم، والمساحة ٣٥ ألف كم٢، ولكنها يمكن أن تضغط فى دائرة يقل قطرها عن ٢٠٠ كم. هذا النمط ليس اقتصاديا من وجهة الإنتاج والنقل والإدارة، ولكنه بالغ الحيوية من الناحية التاريخية، فهو الذى منح مصر عمقها الإفريقى.

إلى حد أو آخر، نستطيع أن نفهم مـن هـذا أن الشلال – متضافرا مع الصحـراء ولفـة النـهر– كـأن لمصـر بمثابـة إقليـم السـد بالنسبة للســـودان: كلاهمـــا أغلـــق الطريـــق وأوقـــف التقـــدم نحـــو الجنـوب وحرفـه بـالضرورة نحـو الشـرق: إلى الصحـراء الشـــرقية فالبحر الأحمـر فـى حالـة مصـر، إلى الحبشـة بـدل النيـل، وضـاعف مـن درجـة هـذا الانحـراف فعـل الريـاح الشـمالية العاتيـة فـى القطـاع الشـمالى مـن البحـر الأحمـر، وهـذا مـا يفسـر أن موانـئ مصر الجنوبية عبر التاريخ قامت على البحر الأحمر وليس على جبهة السودان.

مـن المحتمـل إذن أنـه لـولا سـد الشـلال المركـب هـذا لعـرف الفراعنة منابع النيل ربما، ولتوغلـوا إلى أعـالى النيـل نفـوذا ووجـودا بـدلا مـن أواسـطه علـى الأكـثر، ولتغلـب توجيـه مصـر النيلـى والإفريقـى علـى توجهها إلى البحـر الأحمـر والمحيـط الهنـدى وآسـيا المدارية، ولكانت بذلك أكثر إفريقيـة بكثير وأقـل أسيوية ممـا هـى عليـه الآن. ولكـن مـن الناحيـة الأخـرى، فـإن بفضـل أو بفعـل سـد الشـلالات أولا وإقليـم السـد ثانيـا، أخـذت مصـر مـن النيـل هيدرولوجيتـه دون إفريقيتـه ومـن إفريقيـا أرضـها دون أنثروبولوجيتـها. اختصـارا، كمـا سـبق، أخـذت زُبْدَ المداريـات دون زَبَدِها.

وحدة ولكنها فضفاضة

وعند هذا الحد لا مفر لنا من أن نلاحظ أن حوض النيل، على وحدته الطبيعية الأساسية العامة والعريضة مورفولوجيا وفيزيوغرافيا، يمثل إلى حد ما وحدة إقليمية مفككة نوعا، ليس فقط بحكم اتساع مساحته الهائلة كشبه قارة تقريبا، ولكن أيضا بحكم الفواصل والعقبات الطبيعية والعريضة التى تقطعه من الداخل مثلما وبقدر ما تكتنفه من الخارج. فلئن كانت هذه الفواصل هى التى تميز الحوض ككل من الخارج كجزيرة متميزة فى القارة، فإنها تتركه هو نفسه من الداخل أشبه «بجزيرة من جزر» أى أشبه بمجموعة من الجزر المتعددة المتميزة داخله كالأرخبيل - مجموعة من الجزر المتقاربة - الأرضى قليل الوحدات ضخمة الأحجام.

ففى النهر نفسه هناك الجنادل والشلالات فى النوبة شمالا، ومستنقعات السدود فى السودان جنوبا، وفى الحوض العريض من حول الصحراء فى شمال السودان شمالا، والهضاب الجبلية فى الحبشة والبحيرات جنوبا ومن ثَمَّ يبدو الحوض فى مجمله كمجموعة من الوحدات الإقليمية المحلية المنفصلة بعضها عن بعض إلى حد أو آخر، بحيث تكاد تؤلف سلسلة غير متصلة الحلقات تماما من الجزر الإقليمية المنعزلة بقدر أو بآخر.

فعدا جزيرة أو شبه جزيرة واحة مصر العظمى فى الشمال، فإن السودان الحقيقى الفعال يبدو هو الآخر كجزيرة واسعة الرقعة تنفسح بامتداد النطاق السافانى الأوسط وتستقطب حول خط النيل الطولى الأصغر ولكن الأكثف. ولقد كان هذا بالفعل هو قلب السودان التاريخى فى العصور الوسطى منذ مملكة الفونج وسنار، وما زال كذلك إلى حد بعيد فى السودان الحديث بأرض الجزيرة وامتداداتها الأحدث. كذلك كله يتحدد بثلث السودان الأوسط، يبدو كجزيرة فسيحة للغاية، مخلخلة نسبيا، ولكنها معزولة أساسا فى عمق القارة بين الثلث الصحراوى والثلث الغابى جنوبا. فضلا عن كتلة الحبشة شرقا.

هذه الكتلة الأخيرة، بدورها، كانت تشخص أو تشمخ بنفسها إلى أقصى حد كجزيرة جبلية رأسية أشبه بالقلعة المعزولة عن السهول تحتها وعن النهر شمالها والبحر يمينها. وهى عزلة محكمة ومحتمة إلى حد البديهية الجغرافية، بحيث يكفى كمؤشر إليها أو رمز لها هذه التسميات الشائعة «سقف القارة» «وسويسرا إفريقيا». وإلى حد أقل نسبيا ولكنه ليس مشجعا كثيرا، لا يبقى سوى أقصى منابع النيل فى هضبة البحيرات. فهى تشبه حوضا مقعرا ضحلا. مستديرا مغلقا على نفسه. معلقا على كتف حوض النيل ولكنه مرتكن على حافة هضبة إفريقيا الجنوبية الضخمة وأدخل بالتأكيد فى إطار إفريقيا السوداء.

تلك الجزر الأربع الرئيسية ليس ثمة بينهما، بالمقابل، إلا خيوط دقيقة أو متقطعة أو واهية للربط هنا وهناك على الأكثر. مثال ذلك خط أو خيط النوبة المقسمة بين جزيرتى مصر والسودان فى الشمال، ومصاعد ومنازل الأودية النهرية العميقة الغائرة بين السودان السهلى وكتلة الحبشة الشماء، أو أخيرا مسارب ودهاليز النهر المختنقة داخل مستنقعات السد الكثيفة بين السودان وهضبة البحيرات.

إذن كان حوض النيل جملة جزيرة من جزر. وفى مقابل وحدته المورفولوجية العريضة كحوض نهر وبالرغم منها، كانت تلك الوحدة بالتالى هشة ضعيفة نوعا من الناحية الوظيفية فيها شيء من تفكك وتوجهات منفصلة مستقلة. وَشُيِّدَ باختصار النمط كله طاردا مركزيا أكثر مما هو جاذب مركزى. ومع ذلك، وهذه هى النقطة الهامة، فإن مصر على أية حال نجحت بديناميكية تذكر وفى ميكانيكية خاصة فى أن تتحدى هذا التفكك وتقتحم العقبة هنا وهناك لتحقيق أكبر قدر ممكن عمليا من وحدة الحوض. فكان الاتجاه جنوبًا منطلقا أساسيا من منطلقاتها التاريخية بحيث وصلت إلى أعماق الحوض منذ وقت مبكر نسبيا[1].

(١) حمدان، إفريقيا الجديدة، ص ٣١٨ وما بعدها.

الاتجاه نحو الجنوب

ويقدم لنا «حزين» نظرية مناخية ثاقبة تفسر جزئيا ميكانيكية التوجيه الجنوبى النيلى لمصر القديمة كمكمل حينا او كبديل حينا آخر للتوجيه الشمالى الأسيوى. فهو يقترح ان الذبذبات المناخية التى عرفتها مناطق شمال المشرق العربى حتى العصور الكلاسيكية - والتى لا ينبغى بالضرورة أن تكون بعيدة المدى طبيعيا - كانت تسبب الاضطرابات والقلاقل فيها وتطرد البدو فى غارات تشل مجرى التجارة بين مصر والبعد الأسيوى من ناحية، كما تغريهم بغزو مصر فى شمالها خاصة من ناحية أخرى. فعندئذ تنسحب القوة المصرية إلى معقلها التقليدى فى الجنوب فى الصعيد، لاسيما حول طيبة حيث تاخذ صبغة دينية تحفزها تلقائيا إلى أرض البخور والمر والعطور - بونت والصومال، فيسود التوجيه الجنوبى ويتبلور البعد النيلى الإفريقى[1].

ومما كان يساعد «لا شك» على انتشار نفوذ مصر جنوبا، قرب طيبة من الجنوب، وهى المدينة الكبرى التى ظلت طويلا عاصمة وطنية. والواقع أن موقع طيبة الجنوبى المتطرف جدا فى مصر لا يمكن إلا أن يكون مؤشرا، ومفسرا أيضا، للبعد النيلى فى توجيهها منذ القدم.

---

(1) S. A. S. Huzayyin, Arabia and the Far Eastm Cairom 1942, P. 30-31.

على أن الاتجاه الجنوبى لمصر لم ينقطع طوال العصور القديمة وبعدها. فمنذ البداية عرف الفراعنة شعوب الواوات واليام والمازوى أو الماجوى (والأخيرون هم البجا ولعله تحريف للاسم القديم). وليس معروفا من هم هؤلاء الأقوام والجماعات بالضبط. ولكنهم جميعا من سكان كوش، ولو أن هذه بدورها غير واضحة الحدود فيما عدا أنها إلى الجنوب القريب أو البعيد من مصر.

والأرجح أن هذا كله يشير إلى شمال السودان من النوبة حتى إثيوبيا. يبدو أن تلك التخوم الجنوبية هى نفسها أرض «النهس» عند المصريين القدماء وإقليم «المريس» فى العصر القبطى[1]. وكلها تبدو تاريخيا كهوامش وأطراف على جوانب المنطقة الحضارية التى قلبها مصر، إليها تصل مؤثراتها وعناصرها ببطء نوعا وبفارق زمنى وفيها - كما يحدث فى ميكانيزم الانتشار الحضارى وقوانين المناطق الحضارية - فيها تخضرم بعد أن تكون قد تطورت أو ربما اندثرت فى القلب نفسه، وتبدو بذلك إلى حد ما كما لو كانت متحفا جغرافيا حيا لتاريخ مصرى انطوى.

ولقد كان هذا الإشعاع يتم كقاعدة على محاور ثلاثة كالحزمة: محور النيل أساسا، ثم أودية الصحراء الشرقية. وطرق

---

(١) عوض، الشعوب والسلالات الإفريقية، ص٢٩٧-٣٠٠، نهر النيل ص ٦-٧.

قوافل الصحراء الغربية[1]. فمصر الفرعونية اتصلت بالنوبة منذ البداية.

وهى فيما يُظن التى أخذت من النوبة الحضارة وتأثرت لغتها المصرية ثم القبطية، بل يعتقد البعض - ربما مجرد تخمين - أن اللغة النوبية هى بقايا حفرية بشكل ما للمصرية القديمة.

أيضا توسعت الدولة الوسطى فى الحملات التاديبية على النوبة وشعب الواوات. حتى إذا كانت الدولة الحديثة كان قد تم تمصيرها جيدا وأسست العاصمة نباتا قرب الشلال الرابع التى تشهد أهرامها الصغيرة فى مروى وجبل بركال على مدى النفوذ الحضارى المصرى والتأثر به. كذلك احتكت مصر باستمرار بالماجوى (البجا) فى مرتفعات البحر الأحمر واشتبكت معهم ومع البلمبى Blemmyes فى معارك تأديبية إخضاعا وردا على غاراتهم المتكررة، كما اشتبكت معهم فى علاقات حضارية وثقافية فاعطتهم كثيرًا من حضارتها إلى جانب ديانتها عبادة إيزيس[2].

وكما صدرت مصر عناصر حضارتها وعقيدتها الفرعونية إلى الجنوب، كررت دورها مع المسيحية ثم الإسلام. فعلى رغم أن المسيحية اتخذت فى مصر شكلا خاصا بها حتى أصبحت القبطية

---

(١) عبد العزيز كامل، دراسات، ص ٦٤ – ٦٧.

(٢) عوض، الشعوب والسلالات، ص ٣٥٨.

فى معنى ما ديانة من الديانات التى توصف بأنها جغرافية وعنصرية معا أى تتحدد بإقليم معين وبشعب معين، فإنها لم تلبث أن امتدت جنوبا وبعيدا بين النوبة والبجا. بل لقد توطنت المسيحية وتوطدت فى النوبة خاصة، حيث نشأت مملكتان هامتان هما دنقلة وعلوة. ومن الغريب أن المسيحية بعد أن هجرت مصر، اتخذت من النوبة معقلها على الطريق، فظلت تقاوم المد الإسلامى طويلا حتى سقطت مملكتا النوبة فى القرن الرابع عشر، وبالمثل تخلفت المسيحية فترة بين البجا.

أما الحبشة فكانت نهاية - وقمة - الإشعاع الدينى لمصر، حيث ارتبطت كلية بالكنيسة المصرية، وحيث اعتصمت القبطية أساسا فى المعقل الأخير لتصبح الحبشة أكبر جزيرة قبطية فى إفريقيا بعد أن هاجرت تقريبا من الوطن الأب وتخلفت نوعا على الطريق. بل لقد هاجر بعض المصريين من القبط أثناء الحروب الصليبية إلى الحبشة التى أصبحت منذ منتصف القرن ١٣ الميلادى مهجرا ليس غير مألوف لهم[1]. وبهذه الهجرة وتلك أصبحنا نجد أن ملامح الماضى فى النواة المصرية هى ملامح الحاضر على أطراف منطقتها الحضارية أو أبعادها النيلية. ومن نماذج هذه البقايا المتخلفة آلة

---

(١) عباس حلمى إسماعيل، «التسامح الإسلامى مع أهل الذمة فى عهد الدولة الأيوبية»، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية، ديسمبر ١٩٦٤. ص ٧١.

الصلاصل الكنسية sistrn التى نجدها فى الحبشة اليوم، وهى آلة مصرية قديمة.

مع الإسلام يتأكد دور مصر من جديد. فعلى رغم أن من الثابت الآن أن تعريب السودان سبق إسلامه بكثير، وأن إسلامه عن طريق الجزيرة العربية والبحر الأحمر رأسا سبق إسلامه عن طريق النيل، فقد لعبت مصر دورا هاما فى دفع المد الجديد وكقاعدة كبرى لتعريب السودان. فمنذ الفتح العربى لمصر اتجه زحف الإسلام إلى السودان، أما عقبة النوبة المسيحية فقد احتواها الإسلام وغزاها طويلا وعميقا بالانتشار الغشائى الفعال قبل أن يغزوها بالقوة الحربية. ثم انفتح الطريق كاملا.

فى العصر الحديث

وإذا كنا نرى من هنا أن تعريب السودان فى العصور الوسطى لم يكن دور مصر وحدها. فقد ظل البعد النيلى ذلك منكمشا على نفسه طويلا حتى انطلق فجأة وأخيرًا فى القرن التاسع عشر أيام الإمبراطورية المصرية - العربية - الإسلامية فى حوض النيل وشرق إفريقيا. وقد وصل هذا الزحف نحو الجنوب بسرعة إلى بحر الجبل - الغزال ولكنه توقف أمام الاستوائية بسبب «السد». ذلك لأن النيل، الذى كان ينبغى منطقيا أن يكون طريقا متصلا إلى قلب القارة وأعالى الحوض. لا يلبث أن يتحول - لنفس الأسباب التى

جعلته شريانا هائلا - إلى حاجز مصمت هو السد. فاضطر المد الشمالى إلى الدوران حوله وتخطيه إلى ساحل البحر الأحمر فى إرتريا والصومال. ولكنه لم يكن قد بدأ بالكاد حتى ظهر له سد جديد سياسى لا طبيعى هذه المرة الاستعمار البريطانى، فارتد إلى الأبد[1]. ولعل مما له مغزاه أن السودان «العربى» إنما ينتهى عند بحر «العرب» بالذات.

وهنا سيلاحظ من الناحية السياسية أن حدود الإمبراطورية المصرية العربية الإسلامية قد تعدت حدود حوض النيل بالفعل، وانها تقدمت على محورين، النيل والبحر الأحمر. وتعتبر بذلك أوضح تعبير عن تداخل البُعدين النيلى والإفريقى لمصر. كذلك تعرض هذا البُعد لمحاولات البتر أو التقليم الاستعمارية. فحاول الاستعمار البريطانى أن «يقلب» الانحدار الطبيعى والتاريخى للحوض بعيدا عن مصر، فسعى إلى فصل جنوب السودان توجيها له إلى شرق إفريقيا والمحيط الهندى، وحاول تحريف وجهة السودان الشمالى نحو البحر الأحمر وبورسودان بدلا من مصر النيل وأسوان. وكمجرد مؤشر، فإن الخطوط الحديدية فى حوض النيل لا تؤلف شبكة واحدة متصلة بين دوله، بل مجموعة شبكات محلية داخل

---

(١) هوسكنز، ص ٧٩ وبعدها، محمود كامل، القانون الدولى العربى، بيروت ١٩٦٥.

كل دولة على حدة ومنفصلة بعضها عن بعض. ولكن هكذا هندسها الاستعمار عن عمد بقصد التمزيق والفصل والتباعد.

مصر والسودان

ولا يمكن أن نتكلم عن البعد النيلى لمصر دون أن نضع أكثر من خط تحت السودان. فموقع الجوار الجغرافى ووحدة وادى النيل الهيدرولوجية جعلته من أشد الأقاليم التصاقا وارتباطا بمصر طوال التاريخ، شأنه فى ذلك شأن الشام حيث الرابطة هى موقع الجوار والوحدة الاستراتيجية، هذه الوحدة الهيدرولوجية وهذه الوحدة الاستراتيجية. أى بين مصر والسودان، كما بين مصر والشام، «علاقة خاصة» بمعنى ما. وكلتا العلاقتين قديمة وسابقة للعروبة كما هى لاحقة لها.

ولئن انعكست هذه العلاقة فى الماضى فى أن الشام والسودان كانا أكثر ما ارتبطت بهما مصر وتفاعلت معهما سياسيا وحربيا، فليس من الصدفة أنهما هما أيضا اللذان دخلا بصورة أو بأخرى فى وحدة سياسية مع مصر فى العصر الحديث. ولهذا فإن السودان ومصر بين البلاد العربية هما، كالشام ومصر مرة أخرى، مثل التوائم بين الأشقاء.

غير أن أثقال العلاقات المتبادلة بين مصر والسودان ليست متكافئة بطبيعة الحال: فضخامة حجم مصر الجغرافى والتاريخى،

الاقتصادى والحضارى، يجعل نسبة وزن علاقاتها وتفاعلاتها مع السودان من بين مجموع علاقاتها الخارجية أقل من النسبة المقابلة لنفس العلاقات من بين مجموع علاقات السودان الخارجية. وقد ساهم هذا جزئيا فى أن يجعل المحور الطولى النيلى فى كيان وحياة السودان أقوى وأهم من المحور العرضى السافانى، والتوجيه النيلى أقوى من التوجيه نحو البحر الأحمر. كما جعل قوة جذب مصر المجاورة على السودان أقوى من قوة جذب الجزيرة العربية المواجهة، سواء فى الماضى أم فى الحاضر[1].

والواقع أن للسودان ، كما لمصر، أربعة أبعاد أساسية تتفق مع الجهات الأصلية الأربع تقريبا أو حتى مباشرة بحكم شكله وموقعه. ففى الشمال يبرز البعد النيلى أو المصرى بالضرورة، وفى الغرب البعد السافانى أو السودان الكبير بالمعنى الواسع، وفى الجنوب البعد الغابى أو الإفريقى بالمعنى الدقيق، وفى الشرق البعد البحرى أو الأحمر بقدر أو بآخر.

وابتداء فكما أن مصر حلقة الوصل أساسا بين النيل والمتوسط، فإن السودان هو حلقة الوصل بين العرب وإفريقيا أساسا. وكما تنفرد مصر بهذا الدور بين المجالين، يفعل

(١) حمدان، المدينة العربية، ص ١٧٩.

G. Hamdan, (Some of the urban geography of the Khartoum Com, phex), B.S.G. 1959, P. 57.

السـودان، حيـث لا نظـير لـه فيـهما عمليـا باعتبـار أن موريتانيـا الصحراوية أساسا لا تعد حلقـة وصـل حقيقيـة علـى الجانب المقابل من القارة.

ولكن لأن السودان الفعال، كمصـر أيضـا، جزيـرة شبـه منفصلـة أو منعزلـة فـى قلب الرقعـة السياسيـة وفـى داخـل القـارة مرتكـزة علـى محوريـها الجوهريـين السـافنى العرضـى والنـهرى الطـولى، فإنـه كمصـر أيضـا يتنازعـه الشـد والجـذب فـى الاتجاهـات الأربـع، فيتـوزع بدرجـة متفاوتـة أو متغيرة وذلـك بحسـب قـوة وجاذبيـة كل منها.

فـابتداء نجـد أن الانحـدار الجغرافـى والتـاريخى والسياسـى والاقتصادى للسودان هو أساسا نحو الشمال والشرق أكثر منـه نحو الجنـوب والغـرب. والشمال، لأن هنـا جاذبيـة مصـر الفائقـة بـالطبع، بينما يعزله إقليم السدود عن الجنوب القـارى المجهول. والشـرق، لأن نطاق السفانا، كدهليز أساسى أو شارع رأسى يختط القـارة بعرضـها من الأطلسى حتى الأحمر، إنما يصب وينحدر مـن الغـرب إلى الشـرق أكثر منـه العكس. بمعنـى أنـه كمحـور للحركـة كـان اتجـاه التدفقات البشرية عليه هـو أساسا مـن السودان الغربـى إلى السـودان النيلى أكثر منه العكس (تذكـر طريق الحج وانفلاته.. .. الخ)[1].

---

(١) عبد العزيز كامل، فى أرض النيل، القاهرة، ١٩٧١. ص ١٥٨ –١٦٠.
A.A. Kamel. "Sudan profile", B.S.G.E., 1970, P. 21et seq.

من هنا وهناك كان السودان الفعال وجسم معموره الحقيقى، كجزيرة منعزلة داخل شرنقته، يعطى ظهره إلى حد ما للقارة فى الجنوب والغرب، وبالقدر نفسه يتطلع بوجهه نحو الشمال والشرق. ومن الشمال والشرق أيضا عُرِّبَ السودان وأسلم، أى على الترتيب من مصر النيل ومن الجزيرة العربية عبر الأحمر. بالتالى فلقد كان البعد الشمالى للسودان يرادف التوجيه المصرى تلقائيا. بينما كان البعد الشرقى يحمله عبر الأحمر إلى الجزيرة العربية بصفة آلية.

وبين هذين القطبين فعلا تعاقب أو توزع اتجاه السودان الرئيسى عبر التاريخ. فإذا كان التعريب وتدفق القبائل العربية التى استوطنت نهائيا وغيرت التكوين الجنسى للسودان قد جاء عبر البحر، فإن دفعة الإسلام الكبرى التى منحته وجهه الدينى جاءت من الشمال عبر مصر ومن مصر. وإذا كانت الثقافة العربية قد جاءت من البعد الشرقى، فإن الحضارة المصرية جاءت منذ القدم من البعد الشمالى.

حتى فى العصر الحالى منذ تصفية الاستعمار، حيث قد تلعب السياسات الوطنية الضيقة أو الضحلة أحيانا دورا يفتقر إلى الرشد، ولكن بالأخص منذ تفجر عصر البترول فى الجزيرة العربية بكل جاذبيته ومغنطيسيته ولكن أيضا بكل إغراءاته وغواياته، فإن الملاحظ أن السودان قد يتارجح، حيث لا ينبغى ولا يجوز، متذبذبا بين البعد المصرى فى الشمال والسعودى فى الشرق. فمثلا فى فترات

مًا سمى (الجفوة) مع مصر، وكذلك فى فترات الذروة البترولية العربية خاصة فى السعودية مال الثقل نوعا إلى البعد الشرقى على حساب الشمالى. على أن هذا، مهما يكن الأمر، يلقى على مصر مسئولية خاصة فى تقويم ورعاية بعدها السودانى بخاصة كبعدها النيلى بعامة.

مصر والنيل

إذا كان السودان قلب بعدنا النيلى موقعا ورقعة، فإن أطرافه فى هضبة الحبشة من يمين وهضبة البحيرات من يسار أو من شمال وجنوب هى قلب منابعنا المائية، ومن ثم قمة وحدتنا الهيدرولوجية. ومن هنا فلئن افتقدت تلك الأطراف القصية النائية الكثير من كثافة التفاعل والتعامل والترابط البشرى والحضارى والتاريخى، فإنها تكتسب خطورة حيوية فائقة إلى حد يعلو على كل تعريف أو تأكيد. ولذا يتعين على مصر أن ترعى وتنمى بعدها النيلى فى تلك الأطراف كشرط أساسى لصحتها السياسية.

وبين طرفى الحبشة والبحيرات، إذا كان لنا أن نقيم الأوزان النسبية، فلا شك أن الثقل الأغلب يذهب إلى الأول. ليس فقط لأنه مصدر الفيضان والإمداد المائى الأساسى، ولكن أيضا لأنه الأقرب جغرافيا وبشريا والأكثر ارتباطا تاريخيا وحضاريا. فمن الملاحظ مثلا أنه بينما دخلت المسيحية إلى الحبشة من مصر أولا مثلما دخل

الإسلام منها إلى السودان بعد ذلك، فإنه لا الإسلام ولا المسيحية وصل منها إلى البحيرات.

أيضا فإذا كانت كلتا الهضبتين قلعة جبلية منعزلة على نفسها إلى حد أو آخر. فإن الحبشة، التى لا هى حامية تماما ولا سامية كلية، لا هى أفريقيا تماما ولا عربية بطبيعة الحال. فهى وإن وقعت على التخوم بين العروبة والإفريقية، فإنها تظل إثيوبية أولا ونيلية ثانيا وإفريقيا بعد ذلك فقط. على العكس هضبة البحيرات، إفريقية هى أولا وأساسا، ولكنها بالكاد تعد (بحيرية) أو نيلية بعد ذلك.

وبهذه الخاتمة، لعلنا نستطيع الآن أن نجعل خصائص البعد النيلى فى كيان مصر بصفة عامة. بعدا أصيلا وجوهريا هو لا شك، لم يعرف الانقطاع ولا تعرض للاهتزاز، بل لعله زاد عمقا وقوة على العصور بعامة. غير أنه يغلب عليه بعد هذا الطابع الحضارى والسياسى أساسا. وهو من هذه الزاوية يكاد يكون من طرف واحد بالضرورة وفى اتجاه واحد أساسا، إيجابا فى الشمال وسلبا فى الجنوب. ولكن هذا إنما يعنى النواحى البشرية وحدها، أما طبيعيا فهذا بعد هيدرولوجى بالغ الخطورة بحسبانه أساس الوجود المصرى كله، ما يمنحه تلك الأهمية السياسية الخاصة.

الفصل الرابع

البعد المتوسطى

مصر والمتوسط

إن البحر المتوسط بُعد من أبعاد التوجيه المصرى، قضية لا يمكن بداهة أن تكون خلافية. فالنيل إذ ينحدر شمالا ليصب فيه، والحياة المصرية إذ تجرى مع النيل نحوه، فإن مصر برمتها تتوجه إليه وتتطلع نحو الشمال. والبلد الذى يطل عليه بجهة بحرية مشرفة مترامية نوعا، وإذ يمثل البحر أحد ضلوعه الأربعة، أو بالأصح الضلع الوحيد الحى الذى يتصل مباشرة بالمعمور المصرى باعتبار الضلع الغربى ميتا والجنوبى والشرقى شبه ذلك، نقول أن البلد بهذا لا يملك إلا أن يتفاعل مع البحر ويتعايش. أى إن إحاطة الصحراء بمصر. كما بالشام والأناضول أيضا، وجهتها كما وجهتهم نحو البحر المتوسط وربطتهم بأوربا من خلفه كما ربطت بعضهم ببعض. وكما يرتبطون بإفريقيا وآسيا[1]. فإن مصر فورا وبلا تردد متوسطية أكثر مما هى مدارية أو إفريقية[2].

---

(1) H B. Geore, P. 278.

(2) Birot. Dresch, P. 459.

بل إننا نستطيع أن نقول - إن جاز لنا أن نقول عن البحار: إنها تصب على الاطلاق - إن البحر المتوسط برمته، ولكن بالأخص الحوض الشرقى منه، يصب فى مصر بالتحديد. ولننظر إلى الخريطة. إن البحر المتوسط ينتهى فى آخر المطاف عند مصر، وإن كانت هى أبعد أجزائه عن أوربا. وأى استفادة منه كمعبر إلى الشرق لابد أن تستقطب أخيرا فى مصر (والشام بدرجة أقل). وبغير مفتاح مصر (والشام نوعا) تصبح الحركة فيه نحلية تقريبا، ويتحول من بحر عالمى إلى بحر إقليمى على الأكثر، أى يتحول إلى طريق مسدود.

ثم انظر شكل الحوض الشرقى بوجه خاص، تَرَ كيف تشير كل أصابعه إلى مصر. فالخط العرضى المستقيم من خاصرة صقلية، والطولى من رأس الشام، يؤديان مباشرة إلى مصر، بينما شبه جزيرة إيطاليا والبحر الأدرياتى وشبه جزيرة اليونان وبحر إيجه تتخذ كلها محورا واحدا من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، أى توازى محور البحر الأحمر ووادى النيل إلى حد بعيد، حتى لتكاد اليونان ووادى النيل أن يقعا على محور واحد. كما توشك الملاحة من رأس الأدرياتى إذا استمرت فى نفس الاتجاه أن تؤدى مباشرة إلى مصر. وفى النتيجة فإن البحر يكاد يكون حلقة غير منظورة فى سلسلة تترامى عبر شاطئيه.

ولا خلاف بالطبع حول اختلاف شكل وهيئة الساحلين الشمالى والجنوبى للبحر. فالأول أشد ما يكون تعرجا، مرصع جدا بأشباه الجزر وأشباه أشباهها وبأرخبيلات الجزر، بقدر ما يبدو الثانى شبه خطى متواضع الانحناءات والتعرجات فقير الجزر. ومع ذلك يمكننا أن ننظر إلى العالم العربى كمقابل عريض بالتقريب لجنوب أوربا على النحو الآتى: فى الغرب شبه جزيرة المغرب الكبير تقابل شبه جزيرة أيبيريا، وفى الوسط تأتى مصر باستطالتها وتعميقها وجزريتها المجازية فى قلب الصحراء كإيطاليا فى قلب البحر نفسه. وأخيرا فى أقصى الشرق تبقى شبه القارة أو شبه الجزيرة العربية لتقابل شبه جزيرتى البلقان والأناضول معا. فمصر من هذا المنظور تذكر أكثر ما تذكر بإيطاليا فى حوض البحر موقعا وامتدادا وتقابلا وتواجها، ولو بطريقة مقلوبة.

لا شك إذن أن البحر المتوسط بُعد محسوس كما هو حساس فى توجيه مصر. غير أن السؤال هو إلى أى حد؟ وكيف يستقر البُعد المتوسطى فى وجودنا؟ فالمشكلة «وهى جغرافية صرف» أن البُعد المتوسطى بُعد مائى أو هو مائى أولا يليه يابس ثانيا، وليس يابسا مباشرة متصلا ولصيقا باليابس المصرى أو استمرارا له كما هى حال الأبعاد الأخرى أسيوية وإفريقية أو نيلية أو عربية.

هذا، ابتداء، يضع البُعد المتوسطى فى مرتبة أدنى بالضرورة بين أبعادنا وفى تاريخنا بحيث يصعب أن يوضع تماما على قدم المساواة

وعلى نفس المستوى. فتوجيهنا الجغرافى أرضى أكثر مما هو مائى أو حتى أمفيبى، وتاريخنا برى a land history بمقدار ما أنه تاريخ نهرى وأكثر مما هو بحرى.

والمشكلة بَعد هذا أيضا أن البُعد المتوسطى بهذه الصورة يوشك أن يرادف البعد الأوربى، أو هو على الأقل يتداخل معه بشدة. غير أن مصر أبعد ما تكون فيزيقيا عن الاتصال الأرضى بأوروبا، وإذا كان المتوسط عامل وصل تاريخيا وبشريا واقتصاديا وحركيا، فإنه يظل فاصلا طبيعيا جغرافيا كاملا بطبيعة الحال. ولهذا لا يستقيم تماما أن نتحدث عن البعد المتوسطى وكأنه البعد الأوربى مثلا.

لكن البحر المتوسط، من الناحية الأخرى، إنما يستمد أهميته الفائقة فى تاريخنا وتوجيهنا من أنها هى أوربا بالذات التى تقع وراءه. ومن ثم فإن مفهوم المتوسط لا يمكن أن ينفصل عن مفهوم أوروبا. وليس مجرد صدفة بالتأكيد أن كل من اتجه منا إلى البحر المتوسط أو دعا إلى الاتجاه إليه انتهى فى النهاية إلى أوروبا والأوروبية والأوربة. غير أن المتوسط بُعد، وهو واجهة مصر فحسب فيما هو ظهير أوروبا مباشرة.

واقع الأمر إذن أن هناك تداخلا بين البعد المتوسطى والبعد الأوربى، سواء على المستوى الجغرافى أم التاريخى، تماما كما

يتداخل بعدانا النيلى والإفريقى وإن يكن على يابس واحد متصل مطرد. فجغرافيا، ليس المتوسط، والبحر والحوض، إلا جزءا من أوروبا القارة. تاريخيا. كان بعدنا المتوسطى فى القديم يعنى أساسا أوروبا جنوب الألب. ولكنه حديثا أصبح يشمل أوروبا جميعا، لكن بالدرجة الأولى اوروبا شمال الألب أو بالأحرى أوروبا الغربية. وعلى هذه الأسس والضوابط، وبهذه الضوابط، وبهذه المفاهيم والتحفظات. ينبغى أن نقترب من بعدنا المتوسطى.

مصر المتوسطية

ربما كان طه حسين أول وأجهر من قال بمتوسطية مصر، ودعا إلى الاتجاه إلى المتوسط، كما لعله كان أفطن من أدرك محمولها ومؤداها ومرادفها الأوروبى. (إن العقل المصرى منذ عصوره الأولى إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر المتوسط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسط) [1]. ثم من العصور القديمة يتقدم مع تطور التاريخ والأحداث والتغيرات ليضيف مكملا أن مصر - وإن أسلمت بعد ذلك دينا وتعريب لغة- فإنها ظلت تنتمى إلى البحر المتوسط أولا وقبل كل شىء.

وإذا كان طه حسين بهذا أول المتوسطيين وأوضحهم، فلعله كذلك كان أصرح من فطن إلى أن المتوسطية تؤدى تلقائيا

---

(١) طه حسين، مستقبل الثقافة فى مصر، القاهرة، ١٩٣٧.

وحتميا إلى أوروبا والقوة هى (أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها..).

فإن خيف على مصر من (أن يؤدى الاتصال القوى الصريح بالحضارة الأوروبية إلى التأثير على شخصيتنا القومية وطمس ما ورثنا عن ماضينا وعن تراثنا، فإن الرد لديه أننا إنما (كنا معرضين لخطر الفناء فى أوروبا حين كنا ضعافا مسرفين فى الضعف، وحين كنا نجهل تاريخنا القريب والبعيد وحين لم نكن نشعر بأن لنا وجودا ممتازا).

أما الآن، بعد التحرر والتطور والتقدم، (الآن وقد عرفنا تاريخنا، وأحسسنا أنفسنا، واستشعرنا العزة والكرامة، واستيقنّا أن ليس بيننا وبين الأوروربيين فرق لا فى الجوهر ولا فى الطبع ولا فى المزاج، فإنى، - يمضى أو ينتهى طه حسين - لا أخاف على المصريين أن يفنوا فى الأوروبيين).

تلك فى جوهرها هى نظرة - ولا نقول نظرية - طه حسين، إن كانت مصرية المنبع متوسطية المصب، أو كانت متوسطية المنبع، أوربية المصب، فإنه أساسا قد صاغها فى قالب قضية أو مناظرة الشرق – الغرب. ولعلها لهذا أدخل منهجيا فى باب المتوسط والاعتدال فى موقع مصر التاريخى والحضارى، وإليها سنعود بالفعل فى الفصل التالى بمزيد من التفصيل والتحليل.

اما فيما عدا هذا - وبعد طه حسين - فلعل حسين مؤنس هو اهم من قدم نظرية أصيلة كاملة، مقنعة ومترابطة فى بعدنا المتوسطى. محور النظرية أن البحر المتوسط هو (العنصر الأساسى فى تاريخ هذا البلد). وذلك من بين أبعاد تاريخنا التى يحددها بثلاثة هى إفريقيا وآسيا والمتوسط. وهيكل النظرية، الذى نوجزه هنا بقدر الإمكان فى الفاظ صاحبها المميزة، يقوم على ثلاث معطيات[1].

اولا، أن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسط تقريبا، إذا استقرت أمور مصر ورخاؤها عمر البحر بالنشاط. وتاريخ الإسكندرية - رئة مصر - يوجز ويلخص تاريخ البحر المتوسط كله، فقبلها لم يكن له وجود ككل مترابط، ولم يظهر هو بوحدته وقيمته الكاملة إلا منذ ظهرت هى. فالبحر المتوسط فى الحقيقة بحر إسكندرى، أعطى الإسكندرية ما لم يعطه غيرها، وأفاد منها ما لم يفد من غيرها أيضا، أزهى عصوره، وهذا وذاك هو عصر البطالسة.

ثانيا، تاريخ مصر متأثر بالبحر المتوسط دائما، وذلك حتى فى مراحل العزلة كالعصر التركى. ومصر ليست مفتاح عمران الشرق الأوسط فقط بل والبحر المتوسط كله. فإذا أصابها الفتور أو الفوضى أو تخلت عن مكانها فيه تأثرت دوله جميعا بذلك.

---

(١) مصر ورسالتها: ص ١٧ - ٢٥، ٨٩ - ٩٨.

ثالثا، حياة مصر لا تستقيم إلا إذا كانت متصلة بالبحر المتوسط. فالعنصر البحرى داخل فى كيانها بنصيب هام. ولم يجن على مصر شىء قدر انصرافها عن البحر المتوسط وجبهته، فذاك كان أكبر خطأ تاريخى، وكل سوالب تاريخنا الوسيط وتدهور وتفتت العالم الإسلامى ثم تعرضنا للاستعمار سببها أننا تخلينا عن البحر المتوسط وعن رسالتنا فيه واتجهنا بكليتنا إلى الشرق وآسيا واستغرقتنا بعد واحد من أبعادنا، فضاعت علينا مميزات ذلك الموقع الجغرافى الهام واختل ميزان تاريخنا فكان الانكسار العظيم. وعلى هذا فإن لمصر فراغا فى البحر المتوسط، عليها أن تملأه قبل أن يملأه غيرها.

وموضوعيا، لا شك أن الكثير فى هذا صحيح وأكيد فى جملته ويقوم على حقائق صلبة. ولكنا نخشى أنه ربما زاد نوعا فى تقييم دور مصر النسبى فى حياة البحر المتوسط وفى دور البحر المتوسط النسبى فى كيان مصر (من الصعب مثلا أن نعد البحر المتوسط بحرًا اسكندريا. أو نقول عنه كما قال الرومان (بحرنا)، بل نحن الذى دعوناه بالفعل «بحر الروم». فعلاقة التفاعل المتبادل تأثيرًا وتاثرًا بين مصر والمتوسط علاقة عميقة بعيدة المدى. ولكن من بين دول البحر من لعب فيه دورًا أبرز وينفق فيه جزءًا أكبر من حياته. بل إننا جميعا طالما أسفنا لأن مصر فى الماضى اهملت البحر طويلا وكثيرا، حيث بدت كمتفرج على البحر يستلقى فى

استرخاء على الشاطئ المشمس وقد تدلت قدماه فى الماء بدل أن يسبح ويمعن ويمخر فيه. ثم إن مصر ربما تتأثر بمصاير البحر المتوسط اكثر مما تؤثر فيها، وإن كانت هى أهم حلقة تتحكم فيه. ولهذا كله تظل معطيات النظرية، ويظل البحر المتوسط بعدًا محوريا من أبعادنا، وان كان من الصعب أن يعد الأهم على الإطلاق.

نظرية وحدة البحر المتوسط

ولكن هناك من ناحية أخرى نظرية مختلفة ومبالغ فيها. فالبعض من مثقفينا - يود أو ود يوما – أن يجعلنا جزءًا من حضارة وعالم يتصورونه هو البحر المتوسط. ومنهم من عبر عن هذا بالدعوة إلى أن نتجه إلى البحر، وأن نعطى ظهرنا للصحراء، فما عاد يجدى أن ننظر كما فى الماضى إلى الرمل ونحن فى عصر الماء، عصر المحيط. غير أن هذا الاتجاه أدنى فى الحقيقة أن يكون «رجعة» تاريخية إلى نظرية سادت وروج لها الكثيرون فى الغرب، ولكنها حتى فى ذلك الغرب أصبحت اليوم بالية أو شبه ذلك.

والإشارة هنا بطبيعة الحال إلى نظرية «بيرين» الشهيرة عن «وحدة البحر المتوسط» الكلاسيكية التى يفترض أن الاستعمار الإغريقى ثم الرومانى حققها بالقوة بين شاطئ البحر الشمالى والجنوبى حين كان شمال إفريقيا من جبل طارق إلى السويس بل

إلى الإسكندرية خاضعًا لهما. ولكن من الواضح أن تلك كانت وحدة قهرية مفروضة من طرف واحد، وسلبية من الطرف الآخر، ولا يمكن أن تحسم علاقة.

ومن المعروف أن بعض الكتاب الاستعماريين في عصرنا هذا تلقفوا النظرية من جانبهم وعملوا على بعثها وإشاعتها لأهداف سياسية بعيدة وهي توجيه المنطقة، سواء مصر أم غير مصر من دول البحر العربية، توجيها أوربيا يجرها إلى عجلتها السياسية، أو على الأقل حتى تتطلع إلى أوربا كقبلة حضارية. كذلك فقد تبنت الدعوة بعض الأقليات أو الانفصاليات العربية في بعض الدول العربية نفسها، تلك التي حاولت أن تتخذ من المتوسطية بديلا عن العروبة أو أن تقدمها كمصل مضاد للعربية.

والواقع أن أبرز أو أخطر ما في نظرية وحدة البحر المتوسط أنها تكاد تفصل إفريقيا شمال الصحراء عن بقية القارة. والملاحظ أنه ما من كتاب تقريبا عن المنطقة إلا ويعتبر إفريقيا شمال الصحراء جزءًا من، أو امتدادا، لأوربا «فلير» مثلا، لا يرى في أوربا بمفهومها الجغرافي في الدارج وحدة بشرية فعالة وواحدة إلا إذا أضفنا إليها قدرا طيبا من الجنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا، بحيث تضم كل إطار البحر المتوسط والأسود وقزوين[1]. وعند «جوبليه» أن إفريقيا

(1) Peoples of Europe, op., cit., P. 6.

شمال الصحراء تنتمى إلى أوربا والشرق الأدنى. أما «كون» فلا يرى فى العالم العربى سوى حافة أوربا البيضاء جغرافيا وتاريخيا وجنسيا وكل شىء. ولقد رأينا كيف وزع «هيجل» إفريقيا شمال الصحراء بين أوربا فى ركن وآسيا فى الركن الآخر. هذا بينما يضع «فيتزجرالد» القضية كلها فى بللورة مركزة حين يقرر أن «أوربا تبدأ عند الصحراء الكبرى»[1].

ومن الناحية الموضوعية، فلا مجال للخلاف على أن شمال إفريقيا فى معظمه هو جيولوجيا ومورفولوجيا جزء من النظام الألبى الذى يرتكز أساسا على جنوب أوربا ويلف البحر المتوسط لفا. كذلك فإن مناخ ونبات البحر المتوسط يميز شمال القارة عن بقيتها جنوب الصحراء ويكاد من هذه الزاوية يضمها إلى أوربا المتوسطية. حتى من الناحية الجنسية البحتة، فإن إفريقيا شمال الصحراء هى الشريحة القوقازية، وبالدقة المتوسطية الوحيدة فى إفريقيا، وتكمل بذلك الجنس الأوربى الأبيض أو المتوسطى الأسمر على الجانب الآخر من البحر. كذلك تشترك الضفتان فى حضارة واحدة أساسًا أصولا وميولا، مثلما تشابكا فى العلاقات التاريخية إن سلما أو حربا.

ولا ننس قبل هذا كله وبعده وخلفه عامل القرب الجغرافى، فكما يفصلنا البحر المتوسط عن أوربا. تفصلنا الصحراء الكبرى عن

(1) Africa, p. 18.

إفريقيا. بل ولما كانت الصحراء ضعف البحر عمقا على الأقل، وأضعافه عزلا فى الواقع، نجدنا أقرب إلى أوربا منا إلى إفريقيا بالموقع والمسافة. فالجزء الأكبر من أوربا أقرب إلينا فى مصر مثلا من حيث المسافة من أى نقطة فى إفريقيا جنوب الصحراء: قارن سكندنافيا بسيراليونى أو غينيا، أو الروسيا الأوربية بزامبيا أو زيمبابوى.. إلخ.

هذا عن المسافة الجغرافية البحتة أو جانب الكم إن شئت، ولكن الكيف أو التفاعل الإقليمى لا يقل خطورة. فتاريخيا وعلى ا لجملة، فلقد كانت إفريقيا شمال الصحراء، بحكم هذه الصحراء نفسها. تتطلع إلى - وتتفاعل مع - حوض البحر والشاطئ الأوربى بقدر ما كانت تعطى ظهرها للقارة. ولاشك أنها أقرب فى نواحٍ كثيرة إلى أوربا المواجهة منها إلى القارة الأم.

من يبدأ عند من ؟

لكن السؤال الجوهرى هو: أيفصل هذا إفريقيا المتوسطية أو إفريقيا شمال الصحراء عن إفريقيا ويجعل منها ملحقا لجنوب أوربا أو تكملة لأوربا؟ حسنا، ليس بالضرورة، بل إن العكس لوارد وممكن. فإن النظرية نفسها، وأسسها من بعدها، يمكن أن تجعل من جنوب أوربا ملحقا لإفريقيا.

فاولا، إذا كانت الصحراء فاصلا، فإن الألب فاصل كذلك. وإذا قيل إن «أوربا تبدأ عند الصحراء». فقد قيل بالمقابل «عند البرانس تبدأ إفريقيا»[1]. حتى مناخ البحر المتوسط الشهير هو «فى مجموعة مناخ إفريقيا أكثر مما هو أوربى» كما يخلص سيجفريد، الذى يضيف أيضا أننا «عندما نهبط من شمال أوربا نجد أنفسنا فجأة فى حوض البحر المتوسط، ولا نبالغ حينئذ حينما نقول: إننا إلى حد ما قد تركنا أوربا»[2].

أما تاريخيا، فإذا كان الساحل الأوربى قد طغى سياسيا على الإفريقى، فقد طغى الثانى على الأول قرونا وقرونا. ولقد دمغ العرب حوض المتوسط، الذى نشروا فيه حضارة كان لها سمات وطابع خاص لا يمحى، دمغوه «بالطابع العربى الشرقى» وإن كان هذا مما ساعد على انهيار وحدته الرومانية القديمة ووحدته اللاتينية المسيحية، كما يعترف سجفريد أيضا[3].

أخيرا، فإن توسع المعمور وآفاقه منذ العصور القديمة خطوة خطوة، أبرز أوربا كاملة مثلما كشف عن إفريقيا كاملة فى النهاية، وعاد كل من شاطئى البحر المتوسط يربط - والإنسان

---

(1) Ripley, P. 272.

(٢) أندريه سيجفريد، سيكولوجية بعض الشعوب، مترجم، القاهرة، ص ٣١.

(٣) السابق، ص ٢٩.

حيوان برى أولا – بظهيره القارى أساسا. وفى النتيجة فإن نظرية وحدة المتوسط لا يمكن أن تسلخ شمال إفريقيا عن إفرقيتها أكثر مما تسلخ جنوب أوربا عن أوربيتها. وحقيقة الأمر، ببساطة، هى أن البحر المتوسط بحر مشترك بين أوربا وإفريقيا. إنه بحر«أورافريقى» بمثل ما إن البحر الأحمر بحر إفريقاسى بعدالة.

والواقع بعد هذا أن فكرة أو دعوة «أو إفريقيا» المعاصرة. التى حاولت ربط إفريقيا إلى عجلة أوربا بطريقة أو بأخرى[1]. ليس فيها من الصحة نسبيا إلا قطاعها المتوسطى وإلا المتوسط كبحر أورافريقى. وأبسط دليل. كما هو أبلغ تعبير، عن هذه الحقيقة أن فكرة الشرق الأوسط أو الأدنى كانت دائما فى كل تعاريفها تقريبا تضم أجزاء من أوربا إلى جانب أجزاء من إفريقيا بالإضافة إلى أخرى من آسيا.

توسع البعد المتوسطى
تطور العلاقات المكانية

أما حقيقية العلاقة داخل هذا البحر المشترك. فنمو وتطور تاريخى مر فى أدوار متعاقبة مرتبطة ارتباطا وثيقا باستراتيجية العلائق المكانية الكبرى فى العالم القديم. فقديما كما رأينا لم تكن دائرة المعمور الفعال لتزيد بالتقريب عن الشرق القديم

(١) سيجفريد، سيكولوجية... إلخ، ص ٣٧.

وحوض البحر المتوسط، أما أوربا شمال الألب وإفريقيا جنوب الصحراء فكانتا إما ضبابا وبرابرة وإما مجاهل وبدائيين. فكان طبيعيا جدا أن يستقطب البحر ذلك العالم لاسيما وهو يتوسطه كما يدل الاسم. كان قبلة أو بؤرة مشتركة للجميع بما فيهم مصر. من هنا علاقاتنا الفرعونية الحضارية والتجارية بكريت المينوية ثم باليونان وروما الكلاسيكيتين عدا الشام وقبرص. إلخ.

فإذا استبعدنا الشام على البر الأسيوى، فقد كانت أولى علاقاتنا التاريخية عبر البحر مع أوربا هى مع اليونان بالذات. ومن قبل تعرض الساحل المصرى لغارات «شعوب البحر» ، ومن بعد كان الإغريق يقسمون مصر إلى قسمين: مصر المتوسطية وهى الدلتا، ومصر الإفريقية وهى الصعيد. ومن بعد أيضا صارت الإسكندرية رأس مصر وعقل البحر المتوسط.

وفى العصر المسيحى حدث تحرك نسبى فى علاقاتنا التاريخية من روما إلى بيزنطة. فالحقيقة أن العلاقات الحضارية والتجارية الثقافية والفنية بين مصر القبطية والروم أو القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت علاقات وثيقة للغاية وشديدة التفاعل، كما دامت عدة قرون.

أما فى العصور الإسلامية فقد أصبح البحر المتوسط بُعدا حقيقيا وخطيرا فى كياننا حيث كان كل من البحر ومصر مواقع خطى وحلقات حتمية فى طريق تجارة المرور العالمية. غير أنه مرة

أخرى حدث تحرك فى مركز ثقل العلاقات من بيزنطه والأناضول إلى إيطاليا بمدنها الشهيرة، فالتحمت مصر بالبحر التحاما شديدا، ولكن بالذات خاصرته الوسطى. وكانت الإسكندرية ورشيد ودمياط مع البندقية وجنوه وبيزا وسالرنو وأمالفى كالمدن المترابطة على بعد. وامتد بينها جسر جوى بمعنى الكلمة. فكانت الإسكندرية والقاهرة موطنا دائما - خاصة أيام المملوكية- لمستعمرة نشطة متجددة من تجارة المدن الإيطالية[1]، كما لم تنقطع السفارات بين الطرفين.

والواقع أن هذه العلاقة الوثيقة تذكرنا بتوازى محاور امتداد إيطاليا والأدرياتى مع محاور مصر والبحر الأحمر، ومجموعها كان يؤلف بالفعل حلقة فى إطار ما عرف «بالسلسلة الفقرية الاقتصادية لأوربا» فى العصور الوسطى. وبالمثل كانت علاقاتنا الكثيفة مع الشام تتم بالبحر أكثر منها بالبر - راجع ثنائية «بر مصر» «وبر الشام» - حتى الأخطار الخارجية جاءتنا على البحر، فأكدت الصليبيات بعدنا المتوسطى وإن يكن عسكريا.

وإذا كان العصر العثمانى قد شهد هجرة تجارة المرور العالمية، فإن توجيهنا المتوسطى لم ينقطع تماما، وإنما انتقلت البؤرة مرة أخرى أو ثالثة من خاصرة البحر إلى حوضه الشرقى.

---

(1) Clerget, Le Caire, t, II, P. 109.

وحتى مع الخاصرة لم يعدم الأمر أن حلت التجارة المحلية محل العالمية، ولو أنها كالجدول بعد النهر. والواقع أن العثمانية ربطتنا مع اللفانت ومع الأناضول أكثر مما نتصور عادة، فقد اشتد الاتصال بعاصمة الإسلام «إسلامبول» وسواحل البلقان فى اليونان وألبانيا.. إلخ. وانتقل كثير من مهاجرى هذه المناطق الطاردة إلينا، أو جنودها، وأقاموا أو انصهروا ابتداء من الانكشارية حتى أرنؤوط وألبان محمد على.. إلخ، وبقيت أسماؤهم المعربة تكشف أصولهم أحيانا كما رأينا. وهنا نلاحظ كيف ارتبطت مصر بالأناضول ارتباطا شديدا فى مرحلتين منفصلتين ولكنهما أساسا متناقضتان: مرحلة المسيحية البيزنطية ومرحلة الإسلام العثمانى.

هذا، ومع محمد على والغريب والأوربة، استمر ارتباطنا بشرق الحوض، ولكن أضيف إليه غربه خاصة فرنسا وإيطاليا، إلى أن انقرضت بالتدريج أو ذوت العلاقة مع شرق الحوض. ومنذ القرن ١٩ انتقل مركز الثقل فى علاقاتنا نهائيا إلى غرب الحوض، وبالأخص فرنسا. وهنا نلاحظ أن علاقاتنا بفرنسا قديمة ترجع إلى عصر الصليبيات حين كانت هى قائدتها، إلى حد أننا منذ ذلك الوقت أصبحنا نطلق على الأوروبيين عموما اسم الفرنجه، وهى تحريف للفرنك سكان فرنسا ومصدر اسمها. على أنّ علاقاتنا بفرنسا لم تأخذ دفعتها الحقيقية إلا منذ نابليون ثم محمد على.

ثم جاءت قناة السويس فأعادت تأكيد البعد المتوسطى فى كيان مصر، ولو أننا نكون أقرب إلى الحقيقة إذا قلنا حققت عالمية مصر، التى لم يعد البحر المتوسط سوى حلقة فى سلسلتها وبالمؤازرة، توسعت علاقات مصر عبر البحر لتشمل كل غرب أوربا، خاصة بريطانيا بحكم الاستعمار، ثم معظم القارة على المحور العرضى بما فيها وسط القارة وشرقها وشمالها.

ذبذبة البوصلة

ولابد أنه قد استلفت نظرنا فى هذا العرض التحرك الدائم لمركز الثقل فى علاقاتنا المتوسطية عبر العصور. والحقيقة أن لعلاقات مصر عبر البحر نمطا جغرافيا متحركا ولكنه شبه محدد. ففى البدء اقتصرت العلاقات على جنوب أوربا أو أوربا جنوب الألب أو أوربا المتوسطية بأشباه جزرها الثلاث (أو الأربع بالأصح). وفى هذه الحدود، فإنها تركزت أساسا فى حوض البحر الشرقى أكثر منها فى حوضه الغربى. وداخل هذا القطاع تحرك مركز الثقل فى العلاقات من الشرق إلى الغرب بصفة عامة. غير أن هذا التحرك لم يكن مطردا بل تردد جيئة وذهابا كبندول الساعة بحيث تركز فى أكثر من منطقة أكثر من مرة وأحيانا أكثر من مرتين.

فأولا، فى العصور القديمة، كانت العلاقات أقوى وأشد ما تكون مع اليونان واللفانت. ولكنها انتقلت بقوة إلى إيطاليا (روما) فى

العصور الكلاسيكية. غير أنها عادت فارتدت شرقا إلى الأناضول (بيزنطة) فى العصر المسيحى. ولكنها مرة أخرى تأرجحت بشدة لتعود إلى إيطاليا (جنوه والبندقية) فى العصر العربى وعصر النهضة. ثم لم تلبث أن تراجعت أو رجعت لتستقر لثانى مرة فى الأناضول فى العصر العثمانى.

فى العصر الحديث فقط ابتداء من القرن ١٩ انتقلت العلاقات المكثفة إلى غرب الحوض، خاصة فرنسا لا هى جنوب ولا شمال الألب بالضبط وإنما على الجانبين. وكان هذا إيذانا بتوسع العلاقات بقوة إلى شمال الألب، فامتدت إلى بريطانيا أولا متممة بذلك اتجاه الحركة التاريخى نحو الغرب والشمال أو الشمال الغربى عموما، أو على قاطع يبدأ من الجنوب الشرقى فى اليونان إلى إيطاليا إلى فرنسا إلى بريطانيا فى الشمال الغربى. وأخيرا تمددت العلاقات شمال الألب بالمعنى الضيق لتشمل أوربا جميعا فى الوقت الحالى وإن يكن بدرجات متفاوتات.

تلك إذن هى دورات المد والجزر فى بعدنا المتوسطى، ومنها نرى أن بوصلة مصر الجغرافية كانت تعكس - ولم تملك إلا أن تعكس - نبض البحر وحوضه، فكانت ذبذباته تنتقل كالموجات ليتردد صداها محليا. ولعل أبرز ما كان ذلك فى المدن العواصم وموانى الساحل. فكانت أقدارها ومصائرها وأجرامها تتحدد بتلك الذبذبات والإشعاعات. فإبان الكلاسيكية خلقت الإسكندرية من لا شىء

لتصبح قلب العالم الهلينى البطلمى، وذلك بموقعها المناسب لأغراض الاستعمار البحرى جبهة الالتحام بين الظهير المصرى (الهنترلاند) والنظير اليونانى (الفور لاند). غير أن هذا كان يتركها من وجهة الظهير أشبه بمدينة غربية لصقت بسيف البحر المصرى كما رأينا منها نبتا اثيثا قيا طبيعيا.

أما فى العصور الوسطى ومع علاقات البندقية وجنوه فكان لرشيد أهمية الطريق، حتى إذا تحول التوكيد إلى شرق البحر كانت الصدارة لدمياط وتنيس حيث لا تزال الأولى تحتفظ بآثار تلك العلاقات الشامية فى وظائفها المعاصرة (الأثاث، الحلويات الشامية. . . الخ). وقد ورث محمد على هذا الوضع، ولكنه فى اندفاعه نحو الغرب عاد أولاً إلى رشيد، إلا أن حاجته إلى نافذة حقيقية على أوربا - كحاجة شبيهه فى الروسيا بطرس الأكبر- ادت به إلى إعادة خلق الإسكندرية - مثلما خلق هذا سان بطرسبرج.

ولعلنا، على الطريق، نلمح فى هذه التغيرات المتعاقبة كيف تتناسب موانينا النهرية المصبية عند فرعى الدلتا على المتوسط (دمياط ورشيد) تناسبا عكسيا إلى حد معين مع موانينا البحرية خارج الدلتا (الإسكندرية وبيلوزيوم أو الفرما)، تماما مثلما كانت موانينا المتوسطية ككل تتناسب عكسيا إلى حد آخر مع موانينا على البحر الأحمر.

البعد المتوسطى = الأوروبى ؟

من هذا كله تتضح أبعاد الموقف. فلا جدال فى أن البحر المتوسط بُعد، وبُعد هام للغاية، فى توجيهنا الجغرافى. فهو نافذة لمصر على الشمال، وضابط إيقاع لنبضها الحضارى والمادى. أو كما يوجز «بيترى» مراحل موجات الحضارة كانت واحدة ومتماثلة فى مصر وأوربا إلى قرن مضى، والمتوسط ومصر من ثم يؤلفان مجموعة واحدة فى تاريخ الحضارة[1] .

غير أنه من الواضح بُعد هذا - ربما بحكم الانقطاع الأرضى - أن ذلك توجيه متقطع يشتد حينا ويضعف حينا، أى إنه مذبذب بين شد وجذب. ثم إن دور مصر فيه الآن استقبال أكثر مما هو إرسال، وإن كانت العلاقة عكسية فى التاريخ القديم. كما أن دوره هو فى كيان مصر ربما تضاءل على مر التاريخ باطراد، وذلك لأن دور البحر المتوسط ككل قد قل نسبيا مع اتساع العالم ومنذ أصبح المحيط الأطلسى هو «البحر المتوسط» الجديد.

أما ما نرى من خطورة علاقاتنا بأوربا المعاصرة عن طريقه فهى لا تجعل منه إلا محطة طريق أكثر منها محطة وصول. فعلى رغم أن الجزء الأكبر من تجارتنا الخارجية وعلاقاتنا الحضارية تعبر البحر المتوسط اليوم، فإن نصيب دوله منها محدود إلى حد بعيد،

(1) revolutions of civilization, P.5.

ومعروف كقاعدة عامة فى التجارة الدولية أن العلاقات التبادلية بين كل دول الحوض ضعيفة بصورة ملحوظة لتشابه الإنتاج فيه[1].

ومع ذلك فإن وضع البحر المتوسط الحالى على هذا النحو يعنى شيئا أخطر، فهو إنما يعنى أن مفهوم المتوسط قد اتسع بالنسبة لنا ليتجاوز حدود الحوض الجغرافية والتاريخية ليمتد إلى أوربا، ونكاد نقول يرادفها لأول مرة فى التاريخ. فلم يعد هناك الآن كبير فاصل أو فارق، ومن وجهة نظرنا وعلاقتنا بين المتوسط وأوربا. فالواحد يؤدى إلى الآخر، والأول يندمج فى الثانى. لقد أصبح البعد المتوسطى يعنى البعد الأوربى، أو يكاد..

وهذا كله يضع أيدينا على جوهر التقييم الكامل لمكان ومكانة المتوسط بين أبعادنا الأربعة. فبصورة عامة، بعدنا المتوسطى حضارى أكثر مما هو طبيعى، واقتصادى أكثر مما هو بشرى، ويتركز فى الحوض الشرقى أكثر مما يرتبط بالحوض الغربى. وهو فى هذا قد يكون النقيض المباشر أو الجزئى للبعد الإفريقى. فهذا طبيعى أكثر بينما المتوسطى حضارى أكثر، والإفريقى كذلك بشرى أكثر. حيث المتوسطى اقتصادى أكثر. على أن البعدين. فى الوزن الصافى، وربما كانا متساويين تقريبا وأقرب إلى التكافؤ.

---

(1) slegfried, mediterranean, P. 197.

ولعل وضع الإسكندرية فى مصر يكون تعبيرا اختزاليا عن وضع مصر نفسها فى المتوسط. ولعل «مابرو» قد وضع يده على مفتاح الموقف برمته فى إلمامته العابرة جدا ولكن المعبرة للغاية عن «هذه المدينة العالمية، التى وإن كانت تشكل جزءا رئيسيا من مصر فإنها غريبة عنها». فمصر كما يقول «هى وادى النيل. أما البحر المتوسط وموانيه فتمثل الواجهة التى تطل على عالم مختلف قد يشكل ما كانت مصر تصبو إلى أن تكون عليه، لا ما هى عليه بالفعل»[1].

ولعل هذه الرغبة بدورها تكون جزءا من الرغبة الدفينة عند كثير من مثقفينا فى أن نتوجه أو ننتسب إلى أوربا – مقولة إسماعيل «قطعة من أوربا»، أو «عقدة أوربا» كما قد نسميها، أو «عقدة الخواجه» كما يذهب التعبير الدارج الشائع. كأنما قد وقعت مصر أو كادت، بطريق الخطأ ربما، على الجانب «الخطأ» من البحر المتوسط، أو على الجانب الخطأ من «خط الزوال العالمى للبشرية world meridian of hymanity طبيعيا وبشريا وحضاريا والذى يمثله ذلك البحر فى هذا الجزء من العالم. ومن هنا فلقد نجد بعض مبرر لمرادفة البُعد المتوسطى للبُعد الأوربى أو توسيعه إليه. فإذا كنا نتحدث عن الدائرة الإفريقية، فلم لا نتحدث عن الدائرة الأوربية، وهى بلا ريب الأقرب إلينا من كل الوجوه كما رأينا؟

(١) روبرت ما برو، ص ٥.

أيا ما كان، فيبقى فى النهاية أن البعد المتوسطى بهذا المقياس، وعلى خطورته وأهميته، هو بعد تكميلى نوعا أو هو على الأقل لا يرقى إلى مستوى البعد الأسيوى أو النيلى الذى هو أسبق وأثبت، وإن كان لا يقل بحال عن الإفريقى إن لم يزد، كما لا يجوز علميا أن يوضع فى مقابل العروبة أو العربية. ومن الناحية الأخرى، فإنه من المحقق أن البعد المتوسطى فى حياة مصر كان يمكن أن يكون أكبر وأخطر، لولا أننا أهملناه كجزء من إهمالنا العام للبحر حيث اس رقتنا العقلية البرية استغراقا شديدا. ولعلنا لا نغالى إذا قلنا: إن دور البحر المتوسط فى مصر أقل منه فى معظم بلاد الحوض. ويكفى فى هذا الصدد أن نقارن بالشام أو بالمغرب فضلا عن أشباه الجزر الأوربية الثلاث.

الضوابط الجغرافية

هذا التحديد والحدود ترقد الجغرافيا. فأولا. الحوض وخلف كله تطوقه وتغلفه حلقة جبلية متصلة تقطع الساحل الشريطى المختنق عن الداخل مما يجعل الأول بيئة طاردة تقذف بالسكان إلى البحر كمجتمعات أمفيبية حقا - وذلك باستثناء مصر. فهنا، وهنا فقط، تنكسر الحلقة وينفسح السهل الساحلى وينفتح إلى وادى النيل الضخم. فعوامل الطرد فى البر لا توجد، بل له على العكس كل الجاذبية. ومن ثم كان نداء النهر أقوى بكثير جدا من نداء البحر.

حتى فى التنظيم السياسى. مصر تختلف. فذلك الطوق الجبلى الذى يحف بالبحر، بالجيوب الساحلية الصغيرة الممزقة والمنعزلة التى تركها أمامه، وبالتضاريس الوعرة المقطعة التى تقع خلفه، هو أيضا المسئول عن ظاهرة انتشار دول المدن التى ترصع جنبات الحوض منذ أقدم العصور حتى العصور الحديثة نفسها. بحيث أصبح هذا النمط من أخص خصائص التنظيم السياسى والاجتماعى للحوض وعلما على المتوسط، ولكن هنا - مرة أخرى وللاختلاف المورفولوجى الطبيعى نفسه - تشذ مصر عن القاعدة. فدولة النيل الكبرى الوحدة السياسية الضخمة الموحدة أشد توحيدًا ذات المركزية البالغة، هى بلا ريب النقيض المطلق لدولة المدينة ودول المدن المتوسطية.

ثانيا: نجد أن كل وحدات الحوض تطل على البحر بجبهة مستطيلة ممدودة كالمغرب والشام مثلا، ولكن مصر – كفرنسا فى هذا الصدد – تطل عليه عموديا أو رأسيا. فالنيل – كالرون – يتعامد على البحر فى نقطة تماس أكثر منه بجبهة تواز، لاسيما أن قطاعا كبيرا من قاعدة الدلتا بحيرات ومستنقعات تفصل عن البحر وتترك نطاقا من الكثافة السكانية الخفيفة إن لم يكن من اللامعمور فى البرارى. ولهذا، وكما تلاحظ «سمبل»، تكاد مصر تكون الاستثناء الوحيد فى حوض البحر الذى يتكدس فيه السكان

أساسا على السواحل مباشرة ثم تهوى الكثافة فجأة وبسرعة إلى الداخل. فسكان مصر لا يتركزون على الساحل، بل يكاد الساحل يكون فراغا سكانيا عريضا، وبعده فقط نحو الداخل تبدأ الكثافة السكانية فجأة وبسرعة إلى أن تبلغ أقصى سمكها فى العمق، أى عكس النمط المتوسطى تماما.

كذلك ولذلك فإن مصر - كفرنسا - لها علاقتها بالبحر، ولكنها ليست العلاقة الوحيدة فى كيانها. فكما أن فرنسا دولة بحرين، فكذلك مصر. وكما أن فرنسا قاعدتها الأرضية الضخمة خارج الحوض ولها أبعادها فى غرب أوربا الأطلسية ومشارف وسط أوربا، فكذلك لمصر أبعاد أكثر اهمية فى آسيا وإفريقيا.

ثالثا: يلاحظ أن مصر هى أبعد وحدات الحوض عن سواحله المقابلة الهامة وعن أوربا عامة: إنها آخر المتوسط والمتوسطيات او المتوسطين بالطول كما بالعرض. ارسم مثلا خطا بامتداد ساحلها عليه، تجد كل حوضه يقع شماله، إلا هى وحدها التى تقع جنوبه. كذلك فإنها مناخيا ا لوحيدة فى الحوض التى لا تتبع أساسا مناخ البحر المتوسط، على رغم ان الزيتون - مفتاح هذا المناخ وعلامته المميزة - ينمو فى غرب وشمال الدلتا التى وحدها تمثل شريحة ضيقة متوسطية إلى حد ما. بل إن مصر هى الوحيدة المطلة على الحوض التى لا تعرف مركب الغذاء المتوسطى الشهير الذى

يسوده القمح وزيت الزيتون والفواكه والنبيذ. إنها باختصار متوسطية الموقع دون أن تكون متوسطية المناخ، أو قل هى أقل المتوسطيات متوسطية.

على أن هذا من ناحية أخرى يجعلها الوحيدة فى الحوض التى تنتمى إلى إنتاج مختلف أساسا، مدارى ودون مدارى، مما يجعلها بحاجة خاصة إلى حاصلات الحوض التقليدية (أنواع الجوز والفواكه المجففة وقمر الدين. . . الخ)، كما يجعل الحوض بحاجة إلى حاصلاتها الحارة (القطن، الأرز، البصل. . . الخ). فهذا تكامل اقتصادى يوضع فى مقابل الاختلاف الطبيعى وإن أتى نتيجة له.

رابعا: وأخيرا، وعلى الجانب البشرى، فلعل مصر أقل أجزاء حوض البحر المتوسط تلقيا واستقبالا للتعمير والمؤثرات الجنسية من سواحله وخاصة سواحله الأوربية. حقا لقد تسربت إلينا بعض دماء وجاليات من سواحل الحوض الشرقى ومن الساحل الشمالى الإفريقى، ولكنها لا تقاس مثلا بما تلقاه الشام كاثر من آثار شعوب البحر قديما (الفلسطينيين) والصليبيات فيما بعد والمارونيين بعد ذلك، وبما تلقاه المغرب من عناصر الوندال قديما والأندلوس بعد ذلك. . الخ. إنها، بشريا كما هى طبيعيا، أقل المتوسطيات متوسطية. وبشريا وطبيعيا معا، وفى قاعدة كلية عامة، فإنها متوسطية بالموقع أكثر مما هى بالموضع. إنها البلد الوحيد

الذى يقع تماما على المتوسط ولكنه لا ينتمى إلى حوضه كنوع إقليمى تماما.

الوزن الإقليمى والدور المستقبلى

ولعلنا فى النهاية - إن أردنا أن نضع دور البحر المتوسط فى ميزان قيمنا الإقليمية- نقترب من الحقيقة وأن نقربها إذا قلنا: هى أقوى بالتأكيد من دور البلطيق فى توجيه الروسيا مثلا، وأشبه بالتقريب بدور البحر المتوسط فى توجيه فرنسا. وليس هذا بالدور الثانوى، ولو أنه أيضا ليس بالدور الأول. وعلى هذا الأساس، وبعيدا عن دعوة التوجيه المتوسطى الأحادى unilincar التى تنتزع شريحه أو صفحة واحدة من كتاب التاريخ، وبعيدا كذلك عن دعوة الرجعة التاريخية اللاتينية التى تضع عقارب الساعة إلى الوراء على رغم أن دور البحر المتوسط فى عالم القرن العشرين يختلف جذريا عن دوره قبل الميلاد، على هذا الأساس فإن هناك الآن بكل تأكيد مجالا كبيرا لتوثيق وتعميق علاقات مصر السياسية والاقتصادية والثقافية مع دول الحوض.

ليس فقط توكيدا وتعميقا لهذا البعد الحيوى الذى أهملته مصر أكثر مما ينبغى، ولا تحقيقا لانفتاح مصر على أكبر جبهة ممكنة فى العالم المعاصر وتحقيقا للعالمية، ولا كذلك لأن مصر هى رابع أكبر دوله الأربع عشرة، ولكن أيضا للثقل العالمى الخطير لما وراء

البحر، لأوربا، فى السياسة الدولية والحضارة العصرية والعلم والتكنولوجيا.

فعلى رغم كل شىء، على رغم الماضى التعس مرارا، ومرارة الذكريات أحيانا، فإن الذى يربطنا بأوربا أقوى بكثير جدا. وعلى الأقل، فإن أوربا أقرب إلينا من إفريقيا ليس فقط بمقياس المسافة الجغرافية البحتة ولكن بكل المقاييس. فتاريخيا وحضاريا وسياسيا بل وجنسيا، فإن أوربا هى الأقرب بلا مناقشة. وطبيعى جدا بهذا كله أن نكثف علاقاتنا مع المتوسط وأوربا.

من الناحية الأخرى، ليس المطلوب، ولم يكن المطلوب قط، أن تصبح مصر «قطعة من أوربا». ولا قطاعا ولا قطيعا. وأيضا من ناحية ثانية، ليس المطلوب قطيعة من أوربا، المطلوب فقط أن تصبح مصر «دولة شمالية»، بمعنى الدولة العصرية الحديثة المتقدمة. ومن هنا فلا مفر، بل ومن المفيد جدا أن نعمق أبعادنا المتوسطية وما وراء المتوسطية أى الأوربية.

ليس هذا فحسب، بل أيضا لأن قيام إسرائيل فى حوض المتوسط، وهو نصف عربى، أصبح يستدعى رسم استراتيجية عربية متوسطية – أوربية عظمى لحصارها بحريا وسياسيا وماديا وعزلها عن دوله ودولها – إن الذى يفصلنا عن أوربا اليوم لم يعد البحر المتوسط، وإنما إسرائيل - ليس البحر ولا الاستعمار

الحديث فى القرن ١٩، ولا الحروب الصليبية من قبله، هى التى تفصل مصر (والعرب) عن أوربا (والغرب)، ولكنها هى إسرائيل وحدها التى تفصل.

إن البحر يربطنا اليوم بأوربا أكثر من أى وقت مضى فى التاريخ، والتاريخ لم يعد عقبة فى سبيل أوثق العلاقات، بل لعله بات حافزا ومبررا. العقبة الوحيدة هى إسرائيل. وبإزالة هذه العقبة يمكن أن تتخلق أورابيا Eurabin – كم تسمى – حقيقية جدا وفعاله إلى أقصى حد على كل المستويات المادية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية والحضارية والثقافية، تستطيع أن تشكل وحدة حقيقية أكثر قطعا من فكرة أورافريقيا بل ربما حتى أوراسيا. أو بالعكس. وعلى الأقل. فإن انبثاق مثل هذه الوحدة جدير بان يساعد على احتواء العقبة الإسرائيلية حتى التلاشى وإلى نقطة النهاية وخط الزوال.

الفصل الخامس

تفاعل الأبعاد

الأبعاد البحرية

كيف تفاعلت أبعاد مصر الأربعة، خاصة الأسيوى والإفريقى، فى شخصية مصر؟ قد يكون من المفيد أن نفرغ أولا من الأبعاد البحرية التى تأتى فى المحل الثانى بالضرورة إذا ما قورنت بالأبعاد القارية. والملاحظ ابتداء أن أحادية البيئة المصرية وفقرها النوعى فى المعادن والأخشاب قد دفعت بمصر إلى البحار وما وراء البحار.

وفى نفس الوقت مكنها موقعها الأوسط من ذلك الانطلاق. والمجال البحرى المصرى يتحدد تقليديا بطبيعة الحال بالبحرين المتوسط والأحمر، الأول بحرنا الشمالى: (بحر الشمال)، والثانى بحرنا الشرقى.

بين البحرين

والثقل الأكبر فى الأهمية يذهب بالطبع إلى المتوسط. بمعنى أن دوره فى توجيه مصر ونشاطها التاريخى أكبر وأهم من دور البحر الأحمر، وإن كان كل منهما يستمد جزءا أساسيا من قيمته العالمية من الآخر، ولولاه لفقد الجزء الأكبر من تلك

القيمة وتحول إلى مجرد بحر داخلى محلى. والواقع أن البحر المتوسط باتساع مساحته وتشعبات حوضه وتوسط موقعه وكثافة تاريخه هو كالميدان، فى حين أن البحر الأحمر بضيقه وطوله وفقره النسبى هو كالشارع الجانبى، الأول حلبة والثانى مجرد طريق. أو قل بالتقريب إن الأول أشبه فى مصر نفسها بالدلتا الفسيحة اتساعا وغنى ودورا، والثانى أشبه بشق الصعيد الخطى محدود المساحة والثقل، ومصر تقع فى نقطة الارتكاز المحورية بين الأولين وتستمد من ذلك أهميتها العظمى مثلما تقع القاهرة بين الأخيرين بكل ميزاتها المترتبة. أو إن شئت تشبيها جغرافيا تصاعديا آخر، فالمتوسط بالنسبة للأحمر مساحة وأهمية هو كصحرائه الغربية بالنسبة لصحرائه الشرقية المتاخمة، أو كمحيطه الأطلسى الأب بالنسبة لمحيطه الهندى الأصل قارن فى النهاية أيضا بين دور ومكانة كل من الإسكندرية والسويس عبر التاريخ وفى الوقت الحالى لتختزل كل المقارنة بين البحرين فى نقطة. فكلتاهما تتناسب مع أهمية بحرها وتكاد تلخص وزنه النسبى.

كل هذا يفسر لنا كيف أن البحر المتوسط بُعد أساسى من أبعادنا الفعالة.

فى حين لا يتطرق الفكر أصلا إلى إثارة السؤال عن البحر الأحمر قط. فالبحر الأحمر كل ما يمكن أن يقال هو أنه بحر هام فى

التاريخ والسياسة والاستراتيجية. أما المتوسط فقد لا يكون أكثر من بحر قارى جغرافيا، لكنه تاريخيا بحر البحار أو شبه محيط بل ربما أكثر من محيط، إنه وحده البحر - المحيط، ولا يفوقه من محيطات الأرض الحقيقية أهمية فى التاريخ إلا الأطلسى وحده.

وعلى رغم هذا الفارق العظيم فى الأهمية النسبية والدور الطبيعى التاريخى، وكذلك على رغم التكامل الأساسى بينهما فى أبعادنا البحرية، فإن العلاقة بين البحرين لا تخلو بالضرورة من قدر من التنافس والشد والجذب عبر العصور المختلفة والمتعاقبة. فكما كان هناك على المستوى الإقليمى الخارجى توازن تنافسى بين البحر الأحمر وموانيه المصرية فى كفة وبين الخليج «الفارسى» وموانيه العراقية فى الكفة الأخرى خلال العصور الوسطى الإسلامية، كانت هناك توازنات مرحلية على المستوى المحلى الداخلى بين بحرنا الشرقى وموانى الأحمر فى جانب وبين بحرنا الشمالى وموانينا المتوسطية فى الجانب الآخر.

ولعل السبق تاريخيا كان للأحمر فى الفرعونية المبكرة. بينما انزلق بكامله إلى المتوسط فى العصور الكلاسيكية، حيث استمر واستقر أيضا فى العصر العربى الأول، إلى أن انزلق مرة أخرى إلى الأحمر أثناء الصليبيات وبسببها. بالمثل بعد كشف الرأس حين دخل البحر المتوسط مرحلة المحاق، لعل اليد العليا انتقلت إلى البحر الأحمر، خاصة تحت العثمانية التى نشطت نسبيا فى المحيط

الهندى. إلا ان قدوم قناة السويس أعاد الثقل المطلق الى المتوسط، واعاد الأحمر إلى مكانه الطبيعى كمساعد ومكمل فقط.

وهكذا على الجملة تبدو ثمة علاقة عكسية إلى حد معين بين البحرين لا تعكسها كما تعكسها منافسات موانيهما خاصة دمياط ورشيد والإسكندرية والسويس أيام ابن جبير، بينما طفرت الأخيرة واندثرت الأولى فى أخريات العثمانية وأيام الحملة الفرنسية. ولكن بعد ذلك منذ محمد على وبالأخص منذ قناة السويس أصبح القرن التاسع عشر. فالقرن العشرون قرن الإسكندرية والبحر المتوسط خارج كل مقارنة.

أما إلى أى مدى يمكن أن نتصور القرن الحادى والعشرين قرن السويس والبحر الأحمر، وذلك بعد أن تحرر العالم الثالث وتقدمت المداريات وإفريقاسيا والمحيط الهندى على المستوى الخارجى، وبعد أن برزت التنمية والمدن الجديدة وانتقلت أو انتشرت الصناعة على محور القاهرة - السويس مؤخرا على المستوى الداخلى، فليس من السهل التنبؤ أو التكهن. من ناحية لأن الخطر الإسرائيلى سيحد كثيرا وطويلا فيما يبدو من إمكانيات انطلاق السويسى. ومن ناحية أخرى فحتى لو استبعدنا هذا الخطر، فسوف يظل الثقل الطاغى للإسكندرية والمتوسط خارج كل حدود. ان تفوق المتوسط على الأحمر، لابد ان نقرر، هو من معطيات الجغرافيا التى تقع خارج حدود التاريخ وغير.

مصر في البحرين

إذا كان هذا هو تفوق دور البحر المتوسط المطلق فى التوجيه المصرى، فلنذكر مع ذلك، ودون تناقض أو غرابة، أن دور مصر نفسها فى البحر الأحمر أكبر نسبيا من دورها فى البحر المتوسط، بمعنى أن هناك دولا أخرى من المطلة على المتوسط لعبت فيه أدوارًا أكبر من دور مصر، ولكن مصر بالتأكيد من بين كل البلاد المطلة على البحر الأحمر هى التى لعبت أهم واخطر دور فيه حتى لقد نقول عنه، إنه بحر مصرى إلى حد ما. إنه (بحرنا) فى معنى أو آخر. وإذا كان البحر يبدو على خرائط إغريقية باسم البحر الارترى فذلك اسم على غير مسمى، والأصح تسميته بالبحر الفرعونى كما ورد عرضا فى ابن جبير[1]، أو بحر السويس كما ورد فى ابن خلدون وهو يتحدث عن قطاع بعيد منه هو مياه سواكن، أو بحر القلزم كما كان يسمى حينا ما[2].

كذلك يختلف ثقل مصر السكانى أو حجمها البشرى فى المتوسط عنه فى الأحمر اختلافا نسبيا مؤثرا. فعلى رغم أن مصر فى الماضى القديم كانت كبرى دول حوض المتوسط سكانا، مثلما هى أكثفها على الدوام، فإن أولويتها فيه لم تكن قط طاغية

---

(١) رحلة ابن جبير، ص ٤٤.

(٢) مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، ص ٣٤٧.

إلى حد الاختلاط بل معقولة ومتناسبة مع حجم سكان الحوض الهائل فى الاتساع.

وعلى أية حال فقد فقدت تلك الأولوية فى العصر الحديث لتصبح اليوم رابع دوله عدد سكان، فضلا عن أنها لم تعد تمثل إلا نسبة متواضعة من مجموعة سكان دول الحوض.

على العكس من هذا مصر فى البحر الأحمر، فمصر، الآن كما فى الماضى دائما، ليست فقط كبرى دول الحوض سكانا ووزنا، ولكن أولويتها فيه مطلقة إلى طاغية، وإن مالت إلى التناقص فى الفترة الأخيرة مع نمو سكان سائر دول الحوض نموا سريعا. ففى الماضى القديم إن لم يكن حجمها يرجح مجموع كل بقية دول الحوض رجحانا شديدا، فقد كانت حتى الأمس القريب تعادلها بالتقريب. ففى أواخر السبعينات مثلا كانت مصر ثلث مجموع سكان الحوض بدوله التسع، أو ٤٠ مليونا من ١٠٣ ملايين تقريبا. أما إذا قصرنا الحساب على دوله الست الأساسية والمباشرة، ففى سنة ١٩٨٠ كانت مصر ٤١,٨ مليونا مقابل ٦٥,٨ مليونا للخمسة الآخرين.

من هذا نفهم لماذا كان دور مصر الإقليمى ووزنها النسبى، حضاريا واستراتيجيا، تاريخيا أو حاليا، يختلف فى البحرين اختلافا كبيرا. فعلى رغم أنه فى المتوسط أضعافه فى الأحمر فعلا، وعلى رغم ضخامته وخطره المطلق بين أعضائه، فإنه يظل جزءا من كل، بينما هو فى الأحمر يكاد يكون الكل فى الكل. ولعل مصر

كانت القوة العسكرية الوحيدة على الإطلاق بمعنى الكلمة فى البحر الأحمر طوال التاريخ.

واليوم فإنها هى أساسا وبلا نزاع محور استراتيجية البحر الأساسية والحربية، والمنوط بها الدفاع عنه قبل أى أحد. وهى وإن لم تكن صاحبة أطول ساحل على البحر (وإنما السعودية حاليا)، فإنها طبعا تملك أخطر ساحل وموقع فى البحر جميعا. ولفترة طويلة منذ إسرائيل، كان يختط البحر فى الاستراتيجية السياسية والعسكرية، خاصة فى الاستراتيجية البحرية، محوران قاطعان متقاطعان كسيفى المبارزة: محور إسرائيل - إثيوبيا ومحور مصر - اليمن الأغلب، الأغلب بشهادة وتجربة حرب أكتوبر حين نجحت البحرية المصرية فى إغلاق البحر على العدو وحصاره فيه بحريا بعد أن نقلت مفتاح البحر من قطبه الشمالى إلى قطبه الجنوبى.

مجال مصر البحرى

ومهما يكن من أمر، فإن المجال البحرى لمصر إذ يتحدد بالبحرين، اللذين يرسمان زاوية منفرجة، فإنه من ثم يأخذ محورا خطيا أساسا.

وهذا الامتداد الخطى يجعله متباينا فى بيئاته المناخية والإنتاجية بحيث يكمل بعضه بعضا. فالبحر المتوسط بحر معتدل،

والأحمر بحر مداري. من ثم كان المجال يحمل إلينا من الشمال الحاصلات المتوسطة والباردة. ومن الجنوب الحاصلات الحارة. ويرتكز هذا المجال البحري على ثلاثة محاور أساسية تشكل هيكله من الداخل.

فثمة أولا محور رئيسي إلى غرب البحر المتوسط تتفرع منه فروع إلى إيجه والأدرياني، ثم محور آخر إلى شرق البحر - اللفانت - خاصة الشام ويناظر الطريق الساحلي Via Mare، وأخيرا محور جنوبي على طول البحر الأحمر وقديما وعلى المحور الأول كانت تأتي المعادن: النحاس من قبرص (كلمة النحاس بالإنجليزية مشتقة من تسمية قبرص نفسها)، الحديد والزئبق من إسبانيا.. الخ، بينما يصنع المحوران الآخران معا زاوية منفرجة متكاملة اقتصاديا. فعلى الثاني كانت الأخشاب (الأرز) تأتي من لبنان لتبني السفن، التي تجلب على الطريق الثالث المر والبخور والعطور من الصومال.

غير أن كثافة التفاعل داخل هذا المجال كانت تضعف وتتضاءل تدريجيا نحو أطرافه، بحيث يمكن أن نميز في كل من البحرين، وبنفس الأقطار تقريبا، بين ثلاث دوائر متعاقبة وعلى الترتيب التنازلي. ففي البحر المتوسط نبدأ بالدائرة الداخلية وهي منطقة النواة الحقيقية، وتعني حوض البحر الشرقي حتى برقة واليونان، وهو كما نعلم أهم تاريخيا من الغربي لأنه مهد الحضارات. هنا كانت أكثف علاقات مصر البحرية تجاريا

وحربيا، منذ جبيل وفينيقيا وكريت القديمة حتى قبرص المملوكية وكريت محمد على. وهنا دارت أغلب وأخطر معارك مصر البحرية، منذ أكتيوم إلى ذات الصوارى إلى نفارين إلى أبى قير.

ثم تلى الدائرة الوسطى، وتتفق مع الحوض الأوسط من البحر حتى الخاصرة، وقد لعبت هذه الدائرة أهم أدوارها فى العصور الوسطى وتجارة الشرق. وفى النهاية تتبقى الدائرة الخارجية، وتشمل الحوض الغربى تجاه فرنسا وإسبانيا.. الخ، ومعظم دورها أشد حداثة ويرتبط بالقرون الأخيرة.

أما فى البحر فالدائرة الداخلية تنظم النصف الشمالى منه وترتبط خاصة بأطراف السودان والحجاز، منذ عيذاب والقصير والحج حتى موانى عصر قناة السويس. أما الدائرة الوسطى فهى النصف الجنوبى من البحر حتى باب المندب، وترتبط بتجارة عدن الرومانية وأدوليس التاريخية. وتشمل الدائرة الخارجية سواحل الجنوب العربى والصومال منذ بونت.

وهنا سيبدو وكان الأولوية التاريخية فى العلاقات تأخذ ترتيبا معكوسا إلى حد كبير، فأبعدها وأقدمها. علاقاتنا مع بونت، بينما لم تبرز علاقتنا مع شمال الحوض إلا متأخرة نوعا وخاصة منذ الإسلام، ولعل بعض السبب فى هذا أن القطاع الأكبر من حوض

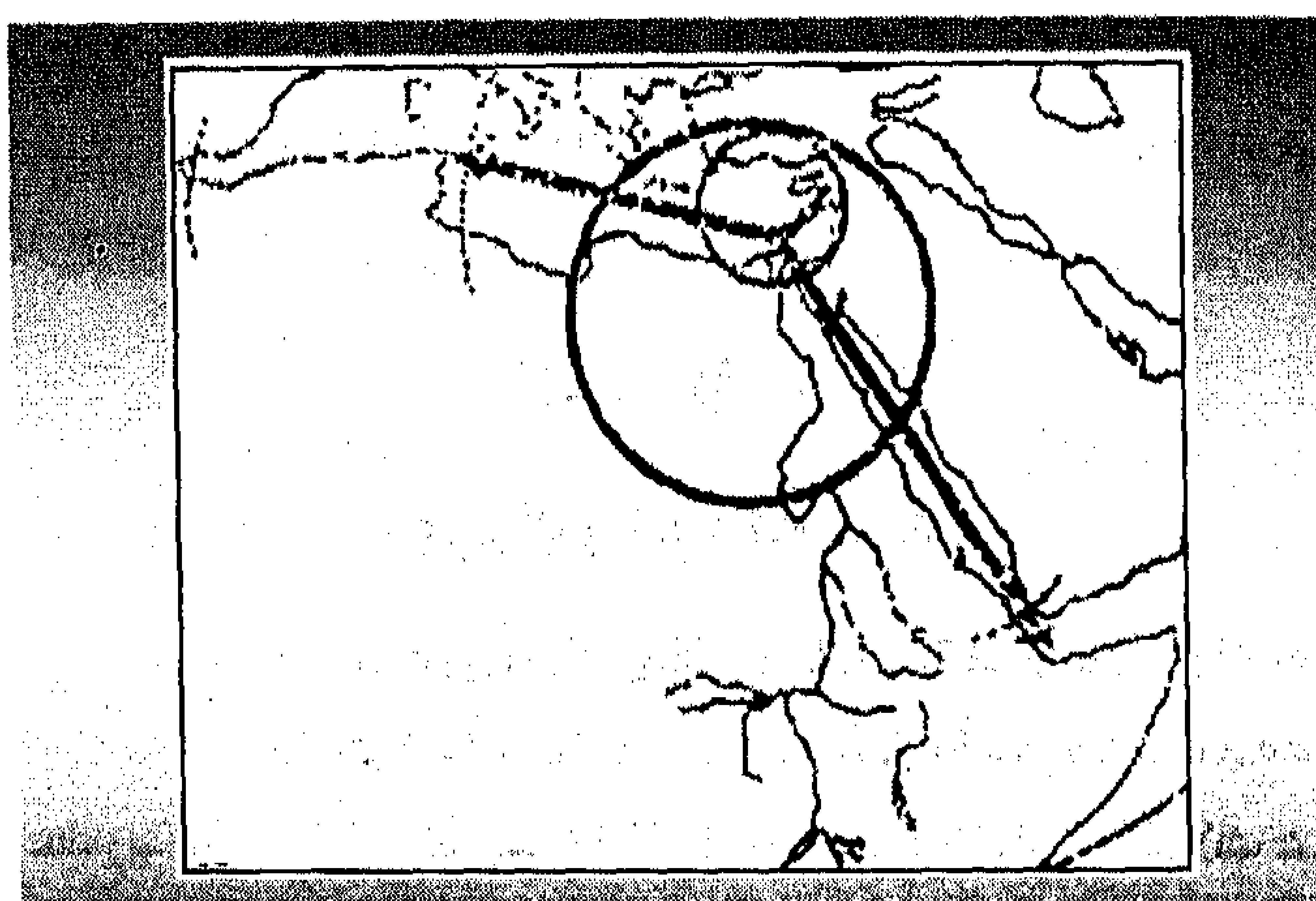
البحر الشمالى صحراء غير منتجة أو غير مختلفة الإنتاج، فى حين لا يبدأ الإنتاج المختلف يظهر إلا فى أقصى أطرافه الجنوبية إزاء اليمن وتجاه الصومال. وفى هذا يختلف البحر الأحمر عن المتوسط المأهولة كل سواحله.

إذا كانت هذه أبعاد مصر البحرية وتفاعلاتها الداخلية، فكيف تفاعلت فى مجموعها مع أبعاد مصر القارية؟ يفيدنا هنا كثيرا أن نصنف مراحل وفترات تاريخية محددة، وسيفيدنا أكثر أن نقارن بالجانب الآخر من البحر المتوسط. ومعروف أن التوجيه الجغرافى فى أوربا مر تاريخيا بمراحل ثلاث: المرحلة المحلية، وفيها انطوت على أقاليمها المحلية فى حالة كمون وَتَكَوُّن، فلم تضع قدمها فى الماء إلا على السواحل المباشرة بالملاحة الساحلية فقط وفى أضيق الحدود، ثم المرحلة البحرية، وفيها نزلت إلى البحر المتوسط أساسا حيث كان المشتل الذى تخرجت فيه وخرجت منه إلى المرحلة الثالثة: وهى المحيطة وتتمثل خاصة فى الأطلسى.

فإذا التفتنا إلى مصر وجدنا مراحل ثلاثا، إلا أن أخراها تختلف جذريا.

فى البدء كانت المرحلة المحلية، التى هى أساسا مرحلة نهرية لم تتعد الملاحة فيها شريط الساحل. ثم تأتى المرحلة البحرية وهى المتوسطية، وهذه لا تناظر المرحلة الأوربية فحسب بل وتتشابك معها كثيرا ابتداء من العصور القديمة ومرورا بالكلاسيكية وانتهاء

بالوسطى. فهى إذن المرحلة التى ارتبطنا فيها مع البحر المتوسط ارتباطا خاصا. ولكن بينما دخلت أوربا المرحلة المحيطية بعد ذلك، نجد فى مصر المرحلة القارية. إذ بينما اتجهت الأولى إلى المحيط، اتجهت مصر مع العرب إلى القارة، لاسيما أن المرحلة المحيطية الأوروبية نفسها جعلت البحر المتوسط بركة آسنة بالنسبة إلى مصر والعرب، فلم يبق إلا أن يتجه العرب إلى ما بينهم قاريًا، وجاءت العثمانية لتؤكد هذا الاتجاه. وبذلك تغلب التوجيه القارى كلية على التوجيه البحرى والمحور العرضى على الطولى وعاد تاريخ مصر «تاريخا بريا».



أبعاد مصر القارية والبحرية، والدائرة الكبرى تمثل مجال تفاعل ونفوذ مصر القارى، والصغرى نواة مجالها ونشاطها البحرى، الأقواس تمثل مجالات الظل وشبه الظل من الأبعاد البحرية.

وإذا نحن أردنا الآن أن نجمع بين أبعاد مصر البحرية. والبرية في هيكل واحد لنستشف منه مجال تأثيرها او تفاعلها التاريخي، كان علينا أن نقصر ذلك على قلب تلك الأبعاد أو نواتها الداخلية الصلبة حيث كثافة الإشعاع على اشدها. لهذا الغرض نرسم دائرة مركزها وقطرها يماس أطراف اليونان وإيجه والأناضول وارمينيا والفرات، ليشمل الشام وغرب الجزيرة العربية والسودان الشمالي وبرقة.

فذلك مجال التوجيه الطبيعي عموما. فإذا رسمنا داخل هذه الدائرة دائرة صغرى تماسها في الشمال لتشمل حوض البحر المتوسط الشرقي، فسوف تقتطع منها المجال البحري بالتقريب، تاركة البقية للمجال القاري.

الأبعاد القارية

دورة التوجيه الجغرافي

فإذا ما التفتنا الآن إلى تفاعل الأبعاد القارية فإن أبرز واخطر ما يستلفت انتباهنا هو بلا شك تلك الدورة الدائرية مع عقارب الساعة في توجيهنا الخارجي نحو القارات الثلاث عبر التاريخ. فمن البداية، وعلى رغم أن مصر في إفريقيا أرضا، إلا أن أول توجيه خارجي لها وعلاقات فعالة كانت مع أوربا عبر المتوسط وغرب آسيا المتوسطية، خاصة اليونان هنا والشام هناك. وظل

هذان البعدان الأوربى والأسيوى بقطبيهما الإقليميين يتجاذبانها معظم تاريخها القديم الفرعونى ما بين شد وجذب إلى أن تغلب البعد الأوربى فى العصور الكلاسيكية.

فعلاقاتنا الكلاسيكية باوربا، اوربا الجنوبية المتوسطية بلغت حدا وثيقا للغاية لا يمكن المبالغة فيه كما لا ينبغى التقليل منه. والحق ان مصر بلا ادنى شك كانت تتجه ايام الكلاسيكية والهلنستية والمسيحية نحو البحر المتوسط بكل ساحله الجنوبى بلا استثناء تقريبا، وتشابكت معه فى السياسة والصراع والتجارة والحضارة والثقافة والفكر والفن والدين والعمارة بل والسكان، وتداخلت مع دوله بشدة بل لقد كان هذا التوجه حاسما تماما، وكان من المفروض ان يستمر ويتصاعد. ومع المسيحية بالذات، كانت مصر - مع الشام وآسيا الصغرى - تنتهى فى تقدير البعض إلى أوربا قلبا وقالبا. فربما فى ذلك الناحية الدينية ربما. فجاة، بحدة، وجذريا تغير هذا التوجيه البحرى الشمالى الأوربى المحقق مع الإسلام. نحو الشرق، تغير بينما انقطعت تماما العلاقات القديمة الوثيقة مع أوربا الجنوبية لترثها آسيا الغربية أو العربية أو كما يقول صبحى وحيده: «وهكذا تغيرت مصر تغيرا عميقا شاملا بعد الفتح العربى عما كان عليه من قبله، فصار أبناؤها يفكرون بالعربية بعد أن كانوا يفكرون بالـ «هيروغليفية» أو الإغريقية ويشعرون شعورا إسلاميا لا «فرعونيا» أو مسيحيا

ويتنفسون فى جو آسيا المغولية بعد أن كانوا يتنفسون فى جو البحر المتوسط». وبذلك استدار التوجيه من المحور الطولى إلى العرضى، وانقلبت القبلة السياسية والحضارية والتاريخية والجغرافية فضلا عن الدينية من الشمال إلى الشرق ومن القدس إلى مكة.

وفى ظن البعض، سواء صح هذا الظن أم شط. أنه لولا الإسلام وهذا الانقطاع الباتر الباغت على المحور الأفقى بين ساحلى البحر المتوسط، فلربما صارت مصر - مع إفريقيا الشمالية واللفانت - جزءا من أوربا، وأوربا المسيحية بالدقة وإلى الأبد، بل وربما كذلك من الناحية الجنسية إلى حد ما. وهؤلاء هم أنفسهم الذين يرون أيضا أن ذلك الانقطاع هو الذى أحنق أوربا إلى حد الحقد. فكانت الصليبيات وشيكا ثم روح العداء والتعصب والعنصرية فيما بعد.

ومهما يكن من أمر، فلقد ظل الاتجاه والارتباط بآسيا العربية والشرق الإسلامى منذ العصور الوسطى وحتى العصر الحديث فى علاقة حميمة شبه مطلقة، حين عادت الجاذبية الأوربية من جديد فى صورة مختلفة تماما عن الماضى، لاسيما فى العقود الأخيرة بعد ثورة التحرير العالمية، مثلما تشكلت العلاقة الآسيوية هى الأخرى ومن جانبها بشكل جديد مصيرى هو الوحدة العربية. وفى الوقت نفسه، ولأول مرة، بدأ يبزغ بُعد جديد للعلاقات الخارجية هو البُعد الإفريقى منذ التحرير. ولأول مرة أصبحت

علاقات مصر الإفريقية ذات أهمية لا بأس بها وبحيث تقاس نسبيا بسائر أبعادها الجوهرية. لقد أضيف أخيرا آخر أبعادنا، البعد الرابع.

الآن فإن الحركة الجغرافية فى هذه التوجيهات كلها على امتداد التاريخ كله جد واضحة. مع الكلاسيكية «تأوربت» مصر إلى حد معين فى توجيهها. ومع الإسلام أسلمت فسلمت نفسها لآسيا «فتأسيوت» إلى حد آخر، وأخيرا جدا فقط وعلى استحياء شديد للغاية «تأفرقت» مع بزوغ أو بروز القارة السوداء. لقد استدار التوجيه الجغرافى عبر التاريخ بزاوية قدرها ١٨٠ درجة كاملة، مع عقارب الساعة، من الشمال إلى الشرق إلى الجنوب، كما لو على قرص دائرى متحرك أو على «صينية» دوارة. تلك حركة التاريخ، وذلك هو التطور التاريخى لنمو أبعادنا القارية الثلاثة.

لا للدوار الجغرافى

داخل هذه الصورة التاريخية، لم تُصَبْ مصر عادة – ولا ينبغى لها قط أن يُصاب - «بدوار جغرافى»، ببساطة لأنها مركز الدائرة وقطب الرحى. وهذه الأبعاد الثلاثة تتعدد فى شخصيتها دون تعارض وتتكامل دون تناقض. ففيما عدا الانتماء القومى العربى الذى سنحدد موقعه فى هذه المتواليات الجغرافية بعد قليل، فنحن مصريون قبل أن نكون إفريقيين أو أسيويين أو أوربيين.

ولكننـا بعـد هـذا وإلى حـد معلـوم اوربيـون أكثـر منـا اسـيويين، وأسيويون أكثر منا إفريقيين. نحن مصريـون اساسـا، ولكننـا بعد هذا أوربيون أولا، اسيويون ثانيا، إفريقيون ثالثا. فنحن فـى افريقيا ولسنا منها، ومن أوربـا ولسنا فيها، ولسنا فـى آسيا ولا منـها ولكننـا إليها.

ذلك أننا فى افريقيا بالجغرافيا والأرض إلى أبعد حد. ومـن اوربا بالجنس والحضارة إلى حد بعيد، وإلى آسيا بالتاريخ والثقافة إلى حـد آخر.

وبين هـذه الأبعـاد. فـإن مصـر وحدهـا هـى الجيروسكوب الراسخ والبوصلة القائدة، وبالتالى الفيصل النهائى فمن جهـة هنـاك البعض الذى يود أن يقذف بها عبر البحر شمالا إلى أوربا، حيث يوجد أيضا أولئك الذين يودون أن يدفعوها باقدامهم إلى أسفل نحو الجنوب عن الشمال وعـن أوربـا. وفـى الوقت نفسـه، وعلى الجانب الآخـر. فـإن هناك من يحاول أن يجذبها من اقدامها هى إلى الجنوب. إلى إفريقيا.

وعلى اية حال، فإن هناك دائما وبوفرة من هم على استعداد لأن يساعدوها «إلى أسفل»، ايا كـان الاتجاه. ولكنـها هـى وحدهـا التـى تعرف، أو ينبغى أن تعرف، طريقها جيدا كما تعرف مصلحتها دون حيرة أو تمزق بين هذه الاتجاهات والضغوط.

والسؤال هو: كيف وبايـة بوصلة تسترشـد مصـر بـين «شـد ود» وضغوط هذه الأبعاد المتباينة وتوجيهاتها التى يمكن احيانا أن تكون

متعارضة او متنافرة؟ ما هو الجيروسكوب الذى يحفظ على سفينة مصر توازنها فى هذه البحار العالية العاتية التى لا مفر من أن تتلاطم من حين إلى آخر، فيحفظ لجسم مصر الذاتى جوهر شخصيته الصلبة؟

حسنا، مفتاح الموقف كله فى كلمة واحدة هى الانتماء «ضد» الأبعاد، الانتماء القومى «ضد» الأبعاد الإقليمية. أجل، فمقياس الأشياء جميعا بين ابعادنا الأربعة هو انتماؤنا القومى، أى الجسم والكيان نفسه مقابل وقبل وبعد أبعاده وامتداداته. وبذلك ما يعنى ويرادف العروبة على الفور. فالقومية العربية والانتماء القومى هو وحده الذى يحفظ توازننا بين أبعادنا المتباينة ويمنع عنا الإصابة بالدوار الجغرافىّ بينها. باختصار، الانتماء القومى والقومية قبل الأبعاد وبعدها وبين الأبعاد وضدها - ذلك هو المصل الطبيعى المضاد لخطر الدوار الجغرافى فى قلب العالم.

لكنه أيضا هو القانون الحديدى الذى لا فكاك لمصر منه وإلا فإنه الضياع بعد الدوار، فالسقوط بعد الضياع. فالموت بعد السقوط. وذلك بالفعل هو الجانب الآخر ولكن الحتمى من الصورة، ظل الصورة. ومن أسف هذا القانون قد وضع موضع التجربة العملية فعلا وتعرضت مصر لاختبار احماض قاس ومرير.

فكر ايضا فى تناقضات المواقف التى برزت فجاة بعد فقدان الاتجاه الذاتى ففى كثير جدا من القضايا الدولية فى عالمنا المعاصر

أو المصارع، أصبح هناك تقليديا عَدُوَّانِ متلازمان أبدا، لا تستطيع أن تصادق أحدهما إلا وتخسر الآخر. فعدا التناقض الأعظم على القمة بالطبع أمريكا × الروسيا. هناك الآن الروسيا × الصين × الهند × باكستان، إيران × العراق، العراق × سوريا، السودان × ليبيا، ليبيا × تشاد، تركيا × اليونان (قبرص)، إثيوبيا × الصومال، الجزائر × المغرب (الصحراء)... الخ.

ففى معظم هذه الصراعات والنزاعات هناك أكثر من اتجاه أو تيار، أو فلنقل الآن بعد من أبعادها، يشد مصر مع أو ضد هذا الموقف أو الطرف أو ذاك. فتتصادم هى وتتعثر بين صميم أبعادها، فتتناقض فى مواقفها، فتتمزق فى سياستها.

والنتيجة؟ النتيجة الحتمية والمحققة أنه منذ أن فرض عليها النكوص عن انتمائها القومى، أصبحت سياسة مصر الخارجية ممزقة بين أبعادها الأربعة. فلم تكن مصر قط هلامية ولا خِلأسية، بلا شخصية ولا هوية، مثلما هى اليوم، سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا، دوليا أو إقليميا أو محليا.

فمن الواضح تماما أن سياسة مصر الخارجية أصبحت مجرد كومة من ركام وحطام وأنقاض. بل لم يعد لمصر سياسة خارجية حقيقية بمعنى الكلمة تقريبا: لا سياسة عربية إلا أن تكون الإفلاس السياسى التام، لا سياسة آسيوية تقريبا، بينما

سياستها الإفريقية تحت الصفر عمليا. . . الخ. ومن الواضح أيضا أن تعدد الأبعاد الجغرافية لا ينبغى أن يتحول إلى انتهازية سياسية فاقعة أكثر مما ينبغى أن يتردى إلى دوار جغرافى أو حيرة إقليمية.

ليس ذلك - دعنا نبادر فنقرر - لأنها اختارت الجغرافيا قبل القومية، ولكن بالدقة والتحديد لأنها تخلت عن الجغرافيا قبل القومية، وخانت الجغرافيا كالقومية.

لقد أصيبت مصر، أخيرا، بالدوار الجغرافى فعلا، لا لشىء سوى أنها خانت جوهر شخصية مصر: انتماء جسم مصر: الانتماء القومى، العروبة.

على أن الواضح الآن تماما، بعد أن راحت السكرة وجاءت الفكرة، أن هذه الانحرافة المعيبة، وإن كانت بلا ريب النقطة السوداء الكبرى فى تاريخ مصر جميعا والتى لن تمحى للأسف من سجله قط، هذه الانحرافة لا تعدو أن تكون محض شذوذ تاريخى عابر عارض يقع خارج التاريخ وسيسقط منه، مثلما كانت فعلا مختلا مخبولا غير عقلانى. ولا يشك عاقل أن هذه الانحرافة السفيهة محكوم عليها مسبقا، وأنها إلى زوال وشيك، لا لشىء سوى أنها ببساطة ضد الطبيعة. ضد الجغرافيا، ضد شخصية مصر.

على أن هذا كله أدخلُ بالطبع فى موضوع الانتماء القومى وباب القومية والوطنية أو مصر والعرب. وإنما حسبنا هنا، فى ظل هذا الدرس القاسى ولكن أيضا وأشباه لمصر فى هذا البعد أو ذاك أو فى هذا الاتجاه الإقليمى أو ذاك. ولقد يكون بعض هذا التشابه جزئيا للغاية، أو سطحيا نوعا، أو حتى شكليا فحسب وبالتالى مضللا إلى حد أو آخر. ولكن من المفيد كما هو من الضرورى مع ذلك أن نضع مصر بين تلك الحالات والنماذج موضع المقارنة، تأكيدا وتجسيدا لشخصيتها الكامنة وَسَبْرًا وتعميقا لأبعادها الحقة.

الفصل السادس

بعض النظائر الجغرافية

مصر والروسيا

فإذا بدأنا على المستوى القارى، فإن الخطأ ابتداء أن نتصور العلاقة بين البعدين الأفريقى والآسيوى لمصر التاريخية أو المعاصرة على النحو الذى يحاول البعض أن يصور العلاقة بين البعدين الآسيوى والأوربى للروسيا القيصرية مثلاً. صحيح أن بين مصر والروسيا بعض متشابهات أكثر من عابرة. فكل منهما الأخت الكبرى فى عالم قومى كبير، العروبة والسلافية. وكل منهما تعرض لضغوط متعارضة بين المحلية والتغريب، وكل منهما نمى لنفسه ميناء - نافذة حديثة - على الغرب على يد أوتوقراطى على شبه معاصر، وصحيح أن مصر هى أكثر أجزاء إفريقيا أسيوية وأقلها إفريقية، بمثل ما أن الروسيا أكثر أوربا أسيوية وأقلها أوربية[1]. غير أن ازدواج الشخصية الذى ينسب إلى الروسيا لا يصدق على مصر. فقد كانت الروسيا تتجه بكليتها إلى جانبها الأسيوى حين كانت تلقى رفضا

---

(1) Shiroshi nasu, in: population Lectures on the Harris Foundation. Chicago, 1930. P. 176.

أو هزيمة أو صدا فى أوربا والعكس[1]، كما كانت تبدو دائما أسيوية للأوربيين وأوربية للأسيويين كما وضعها دوستويفسكى.

أما الأبعاد الأفريقية والآسيوية بالنسبة لمصر فليست مناورة أو تكتيكا سياسيا، بل هى عناصر أصيلة فى كيانها الحضارى والتاريخى. فلا هى تبدو إفريقية فى نظر الأسيوين ولا أسيوية فى نظر الأفريقين، لا ولا هو صحيح أن مصر فى السنوات الأخيرة لم تتجه وجهتها الأفريقية القوية بوضوح إلا بعد أن لاقت المتاعب فى المشرق العربى وحدثت الردة الانفصالية فى سورية أو خلافات العرب بعد أكتوبر. وليس صحيحا أكثر أنها فى الماضى ما كانت تتجه إلى إثيوبيا والسودان والنوبة والنيل إلا حين تصادف هزيمة عسكرية فى الشمال وغرب آسيا. لا وليس صحيحا بالضبط كذلك أن الاتجاه جنوبا كان يعاصر مع فترات ضعفها أو انحدارها وتخلفها أو أنه كان بمثابة خطوة إلى الوراء تماما.

---

(1) G. B. Cressey,. Asia's lands and peoples. P. 243 – 8.

حمدان، استراتيجية، ص ٩٥.

مصر وتركيا

وبين تركيا - كذلك - متشابهات على السطح قد تغرى بالمقارنة. فتركيا جسر بين آسيا وأوربا بمثل ما إن مصر جسر بين آسيا وإفريقيا. بل إن الجسم الأكبر في كل منهما يقع فى قارة، بينما لا يقع فى القارة الأخرى إلا قطاع صغير، سيناء وتراقيا على الترتيب. وفى كلتا الحالتين إنما يفصل بينهما ممر مائى عالمى خطير. أضف إلى ذلك التناظر القريب والملح فى حجم السكان. ولقد تمددت تركيا فى أوربا حتى فيينا كما وصلت مصر إلى البحيرات فى إفريقيا، واندفعت كل منهما فى آسيا من الناحية الأخرى. ولكن كل هذا تشابه ثانوى لأنه سطحى، وسطحى لأنه جزئى. فربما ليس أكثر من تركيا نقيضا تاريخيا وحضاريا لمصر.

هى بلا تاريخ: بل بلا جذور جغرافية، انتزعت من الاستبس كقوة «شيطانية» مترحلة، واتخذت لنفسها من الأناضول وطنا بالتبنى. وبلا حضارة هى، بل كانت طفيلة حضارية خلاسية استعارت حتى كتابتها من العرب. ولكن أهم من ذلك تمثل قمة الضياع الحضارى والجغرافى، غيرت جلدها وكيانها أكثر من مرة: الشكل العربى استعارته ثم بدلته بالشكل اللاتينى، والمظهر الحضارى الأسيوى نبذته وادعت الوجهة الأوربية. ولعلها بين الدول- كما قيل- الدولة التى تذكر بالغراب يقلد مشية الطاووس. وهى

فى كل أولئك النقيض المباشر لمصر ذات التاريخ العريق والأصالة الذاتية والحضارة الانبثاقية. . . الخ.

فكرد فعل على تدهور أحوالها ومكانتها فى العالم الإسلامى بعد سيادة مطلقة طويلة فيه على شكل الدولة العثمانية والخلافة والامبراطورية الإسلامية، انسحبت تركيا الكمالية فجاة من الإسلامية وادارت ظهرها للعالم الإسلامى وتخلت عن الإمبراطورية الخلاسية الفضفاضة متجهة إلى العزلة المحلية وإلى الوطنية الشوفينية الضيقة فى صورة «الأناضولية» وتركيا الصغرى، ثم منها نبذت أسيويتها وتوجهت صوب أوربا والأوربة، لتصبح بذلك ذنب أوربا بعد أن كانت راس العالم الإسلامى.

بالمثل فعلت مصر السبعينات. فبعد زعامة طويلة مطلقة ودور قيادى مجيد فى العالم العربى خاصة فى الستينات. ونتيجة لنكساتها العسكرية المتكررة فى الصراع العربى – الإسرائيلى، ولكن اساسا نتيجة انقلابات الثروة غير المعقولة واختلال توازن القوى بين العرب فى عصر البترول الخرافى والمخرب، تدهورت أحوال مصر ومكانتها بين العرب إلى قرب الانهيار والإفلاس. ولكن بدلا من استراتيجية حكيمة سديدة لاستقطاب العرب خلفها فى الصراع وترشيد الثروة البترولية وتوظيفها باقتدار فيه، أُرْغِمَتْ مصر فى رعونه ونزق اهوج، بل فى سفه انتحارى قاتل، على أن تعطى ظهرها للعرب وتنسحب من العروبة وتتجه إلى العزلة عن القومية

العربيـة لتقبـل العـدو قبلـة المـوت وتلقـى بنفسـها معـه فـى أحضـان الغرب وأوربا الجديـدة، أى أمريكا (الحماية الحانية الحانثة).

وكما أن تحول تركيا عن الشرق الإسلامى والاتجاه إلى الغرب الأوربى تم بعد مراحل طويلة للغاية من لعبة توازن ومضاربة بعض القوى العظمى ببعضها لتحافظ هى على كيانها المتآكل، فكذلك تم تحويل مصر عن العالم العربى إلى العالم الغربى بعد لعبة توازن ومضاربة قوى مارستها حديثا بين الغرب والشرق أو أمريكا والروسيا، ولكن دون جدوى أيضا للأسف.

كذلك فكما أن عزلة تركيا اتجهت إلى الأناضولية الضيقة لا «الطورانية» الأسيوية الواسعة. بالإضافة أصلا إلى الأوْرَبَة والتغريب، فإن العزلة المصرية الجديدة لم تستطع أن تتخذ علنا شكل العودة إلى الماضى أى الفرعونية الضيقة. وإنما غلفتها بقشرة سكرية من اتجاهات التنمية «وتكنولوجيا العصر» والتحضير. الخ.

أيضا فلقد تمت العملية الجراحية المميتة فى الحالتين بالإرهاب المسلح وبقوة الحديد والنار السافرة، على شعب مروع مخدوع. رافض مع ذلك علنا وبالإجماع وذلك على يد نظام عسكرى انقلابى باطش ضار حاقد بقدر ما هو جاهل عاجز فاشل. كلا التحولين، لذلك، ليس إلا نزوة السفه الحاكم وحده، ولا يعبر عن إرادة الشعب أو مصلحته إطلاقا. وإنما تم غصبا وبالقهر وضد إرادته. لذا فإنه

ولد ميتا فى الحقيقة ومحكوما عليه بالإعدام سلفا، حيث عاد الشعب التركى كأمر واقع إلى إسلاميته وشرقيته بالتدريج، بينما عاد الشعب المصرى إلى أشقائه وقوميته بسرعة خاطفة، هذا إن كان قد ابتعد عنها لحظة على الإطلاق. وكما شعرت تركيا بالضياع السياسى والاغتراب القومى والحنين إلى الماضى لفترة طويلة، سرعان ما شعرت مصر فى قرارتها بالندم والأسف والخطأ.

الفارق الأساسى بين الخطاين. أن تركيا خرجت من ماضيها من موضع القوة على اية حال، منتصرة عسكريا، وبكامل كرامتها وعزتها الوطنية كما تصورتها على الأقل، وفى النهاية مرهوبة مرغوبة من العدو والصديق. على أساس استسلام الإرادة المصرية للإرادة المعادية كأمر واقع، وبالتالى فقد خرجت من موضع الهزيمة والانكسار والاستسلام موضوعا، بلاشك ولا جدال وإن يكن بشرط وبقيد شكلا.

العزاء، بالطبع، هو أن الانحرافة تحولت فى مهدها وبأسرع مما توهم مهندسها أو مقاولها أو عميلها إلى كومة بائسة دنسة من الانقاض والأطلال كما هو واضح اليوم تماما لكل ذى عينين ولو معصوبتين. وليس سرا ولا كشفا جديدا أنها الآن قيد إزالة الأنقاض، بما فيها الجثة المتعفنة. استعدادا لاستخراج تصريح الدفن. وفى الجغرافيا، كما فى الحياة، بل فى الحياة بحكم الجغرافيا «لا يصح إلا الصحيح».

مصر وبريطانيا

بعد تركيا، ربما انصرف الذهن لثالث وهلة إلى بريطانيا بموقعها بين أوربا والكومونولث؛ فهى موقعا جزيرة - أرخبيل على ضلوع أوربا، بمثل ما إن مصر جزيرة صحراوية على مشارف إفريقيا. كلتاهما فى القارة وليست منها، وكلتاهما من ثم امتازت بقدر ما من عزلة خفيفة محببة أو مستحبة. والاثنتان كذلك تعرضنا لكثير من موجات الغزو، و/ أو الهجرة، وذلك أيضا من مدخل أساسى واحد شرقى فى الحالتين. على رغم أن موقع الواحدة نهائى فى كتلة اليابس وموقع الأخرى مركزى كل المركزية.

وعلى ذكر الموقع، فعلى رغم أنهما كانتا طرفى النقيض تماما فى القديم، فقد تبادلتا مواقعهما تماما منذ الكشوف الجغرافية حين انتقلت بريطانيا من هامش العالم إلى قلبه ومصر من قلبه إلى هامشة. بل إن الأولى هى بالدقة التى ورثت موقع الثانية بالتحديد. ثم إن امتدادات بريطانيا بعد هذا تقع خارج القارة إلى الكومونولث، كما تتعدى مصر إفريقيتها إلى آفاق العالم العربى.

وفيما عدا هذا وذاك. فمصر هى مهد الزراعة والثورة الزراعية فى التاريخ القديم، حيث قدر لبريطانيا أن تكون مهد الصناعة والانقلاب الصناعى فى العصر الحديث. فكانت كلتاهما بداية

عصر فى تاريخ البشرية وميلاد حضارة عالمية برمتها كاملة.

ولسنا نريد بعد ذلك أن نتتبع المقابلة إلى عنصر الاستمرارية والمحافظة الذى عرفته كل منهما، ودعك من قضية الاستمرارية ضد الانقطاع المتماثلة فى الاثنتين حيث نجد قصة الفرعونية - العروبة فى مصر ومناظرة الكلتية - السكسونية فى بريطانيا.

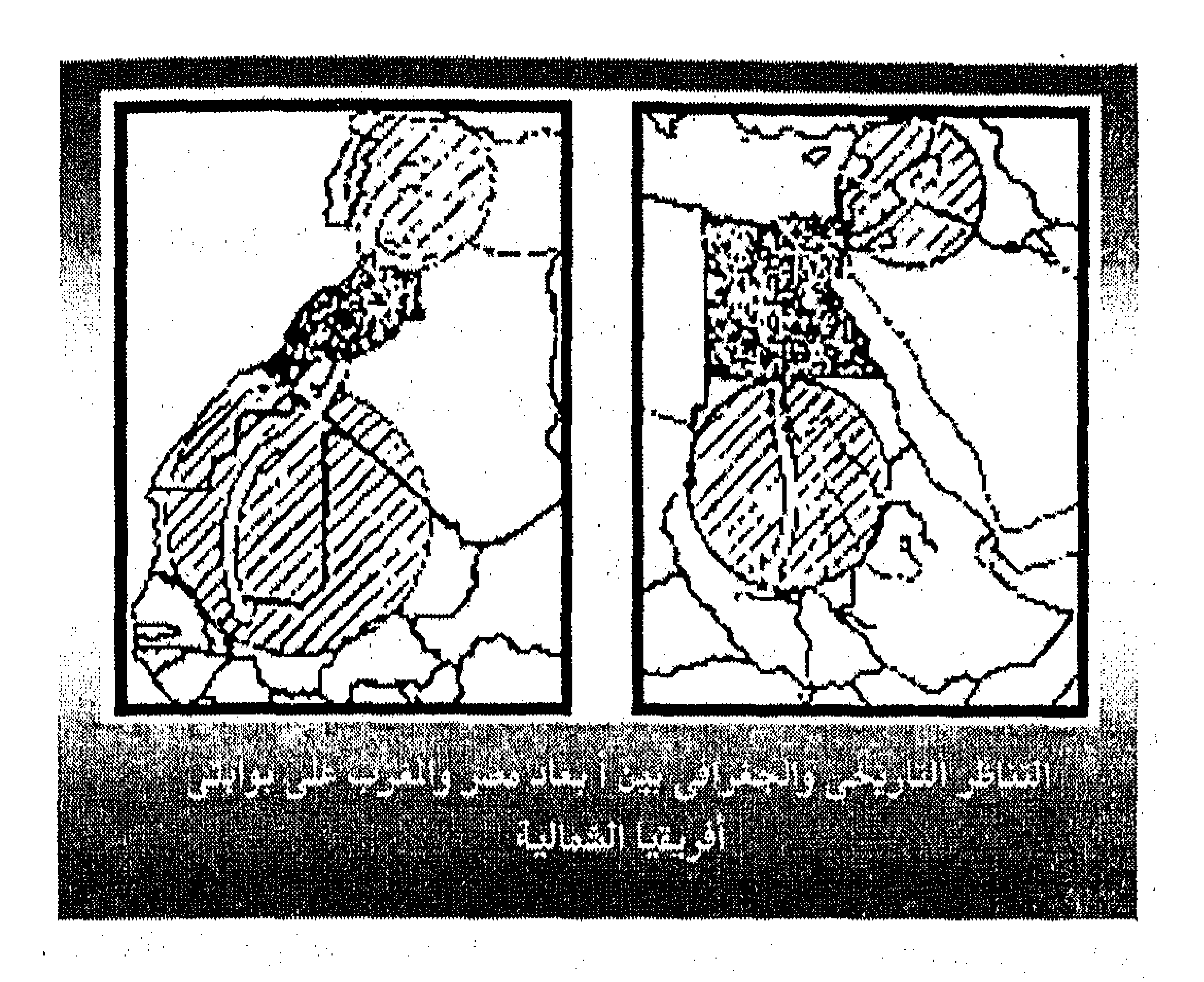
لا، ولن نكرر كيف أن كلتيهما أكثف وحدات قارتها سكانا وأسبقها إلى الثورة الديموغرافية الحديثة، مثلما هى أقدمها سياسيا وكانت لها الصدارة فيها لفترة أو لأخرى. ولكن الشىء الهام أن حيرة بريطانيا وتذبذبها بين القارة والكومونولث (غير المنظور) لا مثيل لها فى حالة مصر التى لا تجد تعارضا أو انفصاما بين بعديها الحيويين.

مصر والمغرب

ولعل أقرب تشبيه إلى ثنائية الأبعاد المصرية هو المثل المراكشى. فكل من مصر والمغرب الأقصى (مراكش) يتناظر فى موقع الركن والزاوية فى إفريقيا، ومن ثم فى دور المحيط وقاعدة الاحتشاد والتوزيع. فكان لكل منهما توجيه جغرافى مزدوج عبر التاريخ: مصر شمالا إلى الشام وآسيا وجنوبا إلى السودان وحوض النيل وشرق إفريقيا، ومراكش شمالا إلى إسبانيا وجنوبا إلى

«شنقيط» (موريتانيا) وغرب إفريقيا. مصر حلقة الوصل بين إفريقيا وآسيا، ومراكش حلقة الوصل بين إفريقيا وأوربا. غير أن البعد الشمالى الأوربى لمراكش، بعد أن كان «المغرب الأوربى» بكل معنى، لم يلبث أن بُترَ تماما، بعكس نظيره المصرى. وقد كان هذا مما نقل مركز الثقل إلى البعد الجنوبى نهائيا فى حالة مراكش، بينما ظل نظيره المصرى مهملا أو ضعيفا.

وفيما عدا النيل، فموريتانيا بالنسبة للمغرب هى إلى حد بعيد كالسودان بالنسبة لمصر، إلا أن السودان أعظم مساحة وامتدادًا للغاية، ومن ثم يتالف من ثلاثية الصحراء - السفانا - الغابات. فى حين تكاد موريتانيا تقتصر على الصحراء ولا تظفر من السفانا إلا بالكاد بشريحة متواضعة للغاية. حتى السكان فى الحالين انتقالية بين العروبة والزنوجة، بل إن تسمية السودان فى حوض النيل تكرر تسمية مماثلة فى المغرب حيث لازال السكان - بحسب الأصل - ما بين «بيضان وسودان». والمثير بعد هذا فى ذلك المركب المتشابه أن تاتى النوبة المتميزة ولكن المقسمة بين مصر والسودان لتقابل شريط الصحراء (الإسبانية سابقا) التى كانت منفصلة عن كل من المغرب وموريتانيا ثم اقتسمت بينهما حتى قريب.



التناظر التاريخي والجغرافي بين أبعاد مصر والمغرب على بوابتي أفريقيا الشمالية

وكما كانت مصر (الواحة الصحراوية) هى القاعدة البشرية التى بدأ منها تعريب السودان، كانت مراكش (الواحة الساحلية المتوسطية) هى القاعدة البشرية «للمرابطين» فى إسلام وتعريب موريتانيا حتى السنغال - كلمة سنغال تحريف فرنسى لاسم الصفة من صنهاجة كبرى القبائل البربرية المستعربة فى العصور الوسطى والتى شاركت فى الزحف جنوبا. وكما كانت مصر رائدة النيل، كانت مراكش سيدة غرب الصحراء الكبرى بلا جدال.

والخلاصة أن دور مصر الثنائى فى آسيا وإفريقيا أشبه ما يكون بدور المغرب الثنائى فى أوربا وإفريقيا. وفى كلتا الحالين كانت هذه الثنائية أصيلة صحية فى كيان الشخصية الإقليمية وليست «انفصاما» مرضيا نتيجة للمضاربات الانتهازية السياسية كما عرفت بلاد أخرى فى الشرق بلادا أخرى فى الشرق والغرب. والخلاصة النهائية أن أبعاد مصر القارية والبحرية، وإن تجاذبتها مرحليا، تتداخل فى تكامل وتناسق طبيعيين بلا تعارض أو تضاد كامن، ولا تشدُّ فى اتجاهات متعارضة أو متعاكسة، بل تتبلور جميعا فى بؤرة واحدة وتؤكد تعدد الأبعاد والجوانب الكامن فى موقع مصر. ومن الناحية الأخرى فإن على مصر ألا تهمل أيا من أبعادها، كما حدث فى بعض مراحل التاريخ، وهى على أية حال لا تملك أن تفعل فى عالم يزداد انكماشا وتداخلا وتزداد هى فيه توسطا وخطورة.

الفصل السابع

والخلاصة النهائية

وإذا كان لنا في الختام أن نتساءل، أين، كخلاصة نهائية- يضعنا تعدد أبعادنا هذا على خريطة العالم المعاصر بشريا وحضاريا؟ فإن الرد هو أن مصر تظل في النهاية وأساسا هي مصر وتظل بوصلتها هي المصرية. أرضا وشعبا وحضارة وسكانا وعلى رغم كل الخيوط والخطوط المشتركة التي تربطها بأبعادها القارية، لا هي إفريقية تماما وإن وقعت فيها، ولا آسيوية تماما وإن لاصقتها، ولا أوربية تماما وإن واجهتها. إنها تنتمي إلى كل هذه الآفاق دون أن تكون هناك تماما، بل تظل في النهاية مصرية تأصيلا وتطويرا وانتماء.

والواقع أن هذه الأبعاد الثلاثة إنما تبدأ على أطراف مصر وتخومها، فهي مجرد مماسات لجسمها الأساسي، ومن ثم يبقى صلب هذا الجسم مصريا بالدرجة الأولى يحدث هذا ويتحقق عن طريق ميكانيزم و/ أو نمط أساسي في تكوين مصر وكيانها نعرفه الآن جيدا. فإذا كان التجانس الطبيعي والبشري هو كما رأينا من أخص خصائصها، فإن الاختلاف والتباين النسبي أو الثانوي لا يبدأ ولا يبين إلا على أطراف وإطار المربع المصري، بينما يبقى صلب الرقعة في الداخل كما هو.

ففى شريط الساحل الشمالى الضحل وحده مثلا نجد المؤثرات المتوسطية مناخا ونباتا، كما تتركز معظم المؤثرات البشرية والحضارية الأوربية قديما وحديثا ابتداء من الإسكندرية «الملصقة بالساحل المصرى» إلى ارتفاع نسبة الجاليات الأوربية فيها وفى بورسعيد وباقى مدن القناة. وعلى النقيض من هذا التخوم الجنوبية من المربع: المؤثرات والعلاقات والتشابهات السودانية والإفريقية البادية فى نمط الحياة والسكان والحضارة.. الخ. يقابل هذا التأثيرات والعلاقات والتوجيهات الآسيوية فى شرق الدلتا وسيناء والبحر الأحمر، سواء فى البيئة والطبيعة أم السكن والسكان. وهكذا يأخذ كل طرف من مصر بطرف من خصائص أرضه المتاخمة أو المواجهة ويتلون محليا إن قليلا وإن كثيرا بلونها، فى حين يظل قلب مصر وجوهرها مصريا أولا وأخيرا[1].

من هنا نستطيع أن نعود إلى معادلتنا السابقة عن أبعادنا الثلاثة فنزيدها تحديدا وحصرا. فإذا كانت مصر تأخذ من كل من القارات الثلاث بطرف بصورة معينة من الخارج، فلعل لنا أن نقول عن الداخل إن أوربا تبدأ عند الإسكندرية، وآسيا عند القاهرة، وإفريقيا عند أسوان. بالتالى فإن الدلتا متوسطية - أسيوية أكثر منها إفريقية، بينما الصعيد منطقة انتقال بين الإفريقية والآسيوية أكثر. وفى هذه التركيبة يكمن بعض تفرد مصر كإقليم بين الأقاليم، وبها هى كفلتة جغرافية قل أن تتكرر بين بلاد العالم.

---

(١) شخصية مصر، الجزء الأولى، ص ٢٨٢.

الفهرست

❋ ❋ ❋

العدد القادم

زوجي ثروت أباظة

عفاف عزيز أباظة

رقم الإيداع	٢٠٠٣/١٥٠٣٣	
الترقيم الدولى	977-02-6495-4	ISBN

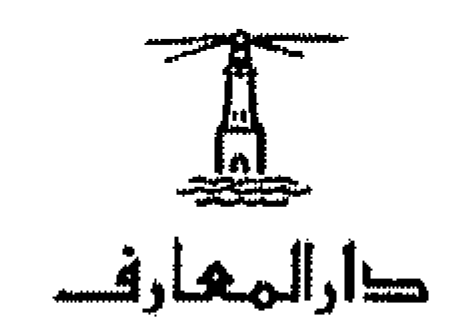
١/٢٠٠٣/٢٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يتنازع الانتماء العربى لمصر أبعاد أربعة، هى البعد الأفريقى والآسيوى والنيلى والمتوسطى. ولقد كان لكل من هذه الأبعاد ثقله ووزنه الذى يجذب مصر فى اتجاهه.. ليكوّن أو يلّون شخصيتها بدرجات متفاوتة من عصر إلى آخر.

وحين يقوم الدكتور جمال حمدان بتحليل وتقييم هذه الأبعاد، ومدى إسهامها فى تكوين الشخصية والهوية المصرية، فلابد أن يكون لهذا الكتاب قيمة عظيمة.



دار المعارف

٤٠٧٤٩٥/٠١

